بورسلان

بورسلان

أيمن عبوشي

رواية

دار الجندي للنشر والتوزيع

القدس

٠٠٩٧٢٢٣٤٠٠٣٥

info@aljundi.biz

www.aljundi.biz

الطبعة الأولى (٢٠١٥)

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر والمؤلف.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher & Author.

رواية

بورسلان

أمين عبوشي

صغيرتاي

قطعتا البسكويت

يقضم من اسميكما قلبي

كلما استبدت به المرارة؛

رند ورغد.

طرَق الباب بخفة خجولة، ولم يفتح؛ حتى سمع صوتاً مكتوماً يأذن له بالدخول. لاذ بأقرب كرسي تعثر به. قبض مسنديه محاولاً أن يجلو الستيل اللامع بكفيه الناعمتين، استرق نظرة أو نظرتين إلى النائب العام القابع، بعيداً خلف المكتب الكبير، يحجب نصف الواجهة الفخمة للغرفة. وجده صامتاً، باهتاً لا يشي وجهه بأية ملامح؛ تدفعه إلى التفاؤل أو التشاؤم.

ساد الصمت فترة من الزمن. ظهر التوتر جليا على وجه مرجي باشا، رئيس حزب الأغلبية، وكان النائب العام الذي تربطه علاقة وطيدة بالباشا يحاول مواساته بشتى الطرق. حاول الوزير استراق بعض الهمس بينهما: "اهدأ. لا تتعجل. كل مشكلة ولها حل. وكما فرضّته على الحزب، تستطيع أن تخلعه. أنت قلت بلسانك إنك أتيت به من الشارع، إنه رجل هشّ ومهزوز. والآن؛ جاءتك الفرصة لذلك.".

ردّ مرجي باشا بصوت خفيض: "المشكلة أننا صنعنا له شعبية في البلد. صحيحٌ أنني أستطيع مسحه كما أوجدته من العدم، لكن الخسائر ستكون فادحة".

كانت حكومة مرجي باشا على شفا الانهيار، وتعلق كل شيء بأقوال الوزير. لم يعوّل الباشا كثيراً على ما قد يقوله هذا الرجل، لكنه تعلق بخيط الأمل، علّه يجد في كلامه ما ينقذه من

المأزق. كل ما كان يبحث عنه الباشا، كان مدفوناً في التراب، في قصة حصلت قبل سنوات عديدة. حتى قبل أن يتعرف على الوزير.

بقي الوزير مستسلماً لكرسيه في أول الغرفة، حتى جاءه صوت قوي من داخلها: أرجوك اقترب أكثر؛يا معالي الوزير، لماذا جلست بعيداً هكذا؟!

دنا معالي وزير التعليم العالي إلى الكرسي المقابل للوجيه "مرجي باشا"؛ رجلٌ سبعيني شارك النائب العام جلسة التحقيق السرية. وحين لمح تكشيرة خرساء محددة القسمات خلف ضباب سيجاره الكوبي المدبب، فضّل الوزير ألا ينقب في عينيه اللامعتين عن شيء يتشبث به في محنته.

دخل الساعي من ورائه بصينية تحمل بكرج قهوة، وأربعة فناجين فارغة. سكب السائل الأسود ووزعها، واستدار متأهباً للخروج، قبل أن ينادي عليه سعادة النائب العام: أغلق الباب خلفك، وقل لهم ألا يسمحوا لأحد بالدخول. أخبرهم أني في اجتماع مهم".

أخذ سعادته زجاجات ماء بارد من ثلاجة صغيرة خلفه مباشرة، نصب واحدة أمامه، ومدّ الثانية إلى الباشا. وفرد ذراعه، ورفرف بحاجبيه متوجها إلى معالي الوزير: خذ. برِّد أعصابك. تبدو متوتراً على غير عادتك! ناول الزجاجة الرابعة

للموظف الجالس حدّه تماماً؛ رجل لم يلحظه أحد باكتراث.

التقط النائب العام منفضة سجائر من جارور مكتبه، ووضعها على مسافة واحدة بينه وبين الباشا. ابتسم، وقال بلكنة جادة وهو يشير إلى سيجار الباشا: "سوف أسمح لنفسي، ولك ببعض السجائر، ستكون الجلسة طويلة. مع أني أصدرت قراراً يمنع التدخين في مبنى النيابة العامة"، أقفل تعليقه بضحكة فجّرت قهقهة مزيّفة في فم مرجي باشا المليء بالدخان، وبددت ارتباك المكان ولو إلى حين.

أشعل النائب العام سيجارة بيضاء طويلة، مستعيداً رزانته، ونظر إلى الموظف؛ الذي يكاد يكون قطعة من الأثاث الصامت في غرفة فسيحة. أمره أن يفتح المحضر. أدار رأسه صَوْبَ معالي الوزير، وبسط كفه ناحيته، وقال: "أنت تعلم أن ما ستقوله سيبقى طي الكتمان، تأكد أنك لا تخضع للتحقيق بالمعنى الحرفي؛ إنه إجراء روتيني، ليس أكثر، حتى نضع حداً للقيل والقال، ونجد مخرجًا من هذا المأزق. فأنت لا تزال تتمتع بالحصانة. أليس كذلك يا مرجي باشا؟!" عاود النظر إلى معالي الوزير، وقال متحاشياً دخان سيجارته المتصاعد بنصف إغماضة :

س: كيف ترد على التهم المنسوبة إليك، بأنك تنتحل شخصية رجل بارز كي تتقلد منصب وزير التعليم العالي؟

رفع الوزير رأسه متفهماً. لم تكد رقبته تسعفه، فأخذ نفساً

عميقاً، وأغمض عينيه بالكامل، قبل أن يشد طرفي جاكيته على جذعه، ويضم ساقيه إلى بعضهما، ويبدأ الكلام لساعات من دون توقف، وكأنه كان ينتظر فرصة لأن ينفض عن كاهله ذلك الحمل، وليفصح عمّا يجول في قلبه منذ زمن بعيد.

جواب

(لن تدركا حجم ما عانيته طوال كل تلك السنوات الماضية! كانت أياما قاسية. صعبة للغاية حتى رأيتك يا مرجي باشا.

أتذكر السؤال الذي راودني حين شممتُ رائحة نتنة تشبه رائحة السردين: «هل أنا قذر؟!»

عندما دعاني فضل؛ جاري «المخابرات»، على الغداء في شقته، كان عبير الصنوبر يعطر المكان. لا أحب الصنوبر

مع أني استحم يومياً، أدعك جسدي بالصابون وأدلق العطر في كفي، أفرك به شعري، وأرشه على وجهي وهندامي، إلى هذا الحد كنت أهتم بنفسي ونظافتي!

أذهب إلى مكتبي في الجامعة بكامل أبّهتي. كل شيء على أصوله إلا تلك الرائحة البغيضة التي لازمتني وأحرجتني أمام الجميع. عرفت أخيراً وبعد أيام أنها تفوح مني. خشيتُ أني فقدت قدرتي على الاستيعاب، "غبي وقذر؟!"، لا. لست كذلك، أنا ناجحٌ في حياتي المهنية؛ أحمل شهادة الدكتوراه في العلاج الطبيعي، ودبلوم عالياً في التربية، ودورات تدريبية عديدة، وأتحدث الإنجليزية بطلاقة

اعتاد أنفي الرائحة النتنة، تنفستها جرعات مكثفة، صارت جزءًا من روتيني اليومي

احتجبتُ عن الناس. لم يكن ذلك صعباً، فأنا أحبُّ العزلة كنتُ أحب الانزواء في شقتي. لستُ منبوذاً، كما تظنان، ليس هذا هو السبب؛ فلدي المئات من المعارف، ونفوذي واسع. ربما لأني كنت ألاحظ في عيون الناس حقدًا وغيرة. فكلما دعوتُ أحدهم إلى منزلي تعذّر بحجة واهية. من الخير أن يتحاشاني هؤلاء، آخر ما كان ينقصني عين حاسدة.

أصدقكما القول: لقد خالجني شعورٌ أنهم يغارون، أعترف أني مصاب برهاب الارتياب، لكن هذا لا يعني أنهم مواطنون صالحون بالفطرة!

شيء واحد أجبرني على الاختلاط بكل أصناف البشر، وتحمّل نكاتهم السمجة، ووجوههم الكئيبة، وأنفاسهم الكريهة.

حبي للدولة. كم أحب "الدولة"!

وظيفتي الثانية، شخصيتي السرية. البلد كان بأمسّ الحاجة إلى قدراتي، يحتاج إلى من يحميه من المتآمرين. كنت أفخر بعملي الغامض. يضفي مذاقاً خاصاً إلى حياتي الناجحة. وبالطبع اعتبرته واجباً وطنياً. هو كذلك، إنه واجبٌ وطني لا يقوم به إلا أشخاص وطنيون يتسمون بقدرات خاصة، أعترف.

أتذكر، قبل سنوات عديدة، طلب مني ضابط أمن رفيع، اسمه

العقيد فوزي، رأيته صدفة عند جاري فضل "المخابرات"، أن أعمل بوظيفة قال عنها: "إنها حرجة، بعض الشيء، لكن لن تكلفك جهداً يذكر، تعمل حيث تعمل". هكذا قالها في جلسة لم نكف فيها عن الضحك. أعتقد أن سرعة بديهتي أعجبته كثيراً. هذه خصلة ورثتها عن أبي "العجوز"، وهي ضرورية لهذا النوع من المهام.

حين رآني العقيد أول مرة، توسّم في شخصيتي الاستعداد لهذه المهمة الصعبة، صحيح أنها ليست مجانية، لكنها ليست مجزية. الجميل في الموضوع أن فوزي لم يبخل عليّ بنفوذه. رجال تخافهم الرجال، وتُفرش لهم السجادة الحمراء، يقفون مع شواربهم الكثّة متأهبين عندما كنت أزورهم في مكاتبهم.

حصلتُ على علاواتٍ وامتيازاتٍ في عملي، ورئيسي كان يتغاضى عن تجاوزاتي. في الواقع، لا أسميها تجاوزات، كانت "ضرورات" لشخص عاش حياة مليئة بالانشغالات. آتي إلى الجامعة وقتما أشاء، وأغادر عندما يحلو لي ذلك، لا آبه.

أنا ابن الدولة. وهذا ما يفسر براعتي في إظهار ولائي.

قالوا إنه نظام ديكتاتوري. والله لا أعرف ما الفرق بين ديمقراطي وديكتاتوري. وما يريده هؤلاء، لا أقول إن الديمقراطية سيئة لا سمح الله، لكل نظام حسناته وسيئاته. أنتما لا تعرفان. لا تحكما حتى تجربا بنفسيكما!

يعني، لا ضير من بعض التلميح لمهامّي السرية، حتى يدرك من حولي من أنا، ويحرصون على انتقاء عباراتهم، ويقدّرون المسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتقنا، نحن من نخدم الدولة. هذا أقل ما يمكن أن يكافئني به المجتمع. المبلغ الذي كان يدفعه العقيد فوزي أقل بكثير من إنجازاتي!

قال العقيد مرّة، إن أسلوبي في كتابة التقارير يؤهلني لأن أكون كاتبًا مرموقًا ما لي بذلك؟! قال إنه يرفع تقاريري إلى رئيس الجهاز، مباشرة؛ كي يستفيد منها في تحليل الأوضاع في البلد، ووضع خطط أمنية. لم يصبني إطراؤه بالغرور، أعرف قدراتي جيدًا.

المهم. بقيتُ ورائحتي توأمين. شيئين متلازمين؛ رجلٌ وظله. حاولتُ تناسي رائحتي برهةً، تمامًا كما طويت صفحة والدي؛ العجوز. أسميته "العجوز" منذ كنت في المدرسة، صار عجوزًا بالفعل. أردته أن يكون كذلك، ويترك لي المسؤولية. كبر الرجل؛ وبات يحتاج إلى عناية لم أستطع توفيرها له. أرسلته إلى دار المسنين؛ ليقضي سنواته المتبقية هناك. عرفتُ أن حياته ستكون أفضل من العيش معي في شقتي الصغيرة، وحده طيلة النهار. ماذا يريد أفضل من ذلك؟!

دار المسنين كانت قصرًا لأحد الوجهاء. حوّلتها ابنته إلى وقف لإيواء العجزة وكبار السن. خدمة "خمس نجوم"؛ ممرضات حسناوات وأطباء متخصصون، حديقة كبيرة تطوّق الدار، تحيط بها أصص الورد، ورجال بعمره يلعب معهم الورق، وطاولة الزهر. طعام صحي، سلطة

وشوربات ووجبات مختلفة لكل يوم. ولا أروع!

المشكلة أني صرت أنفر من رائحتي ومن نفسي، حاولت تجاهلها رغم أنها تفوح بقوة.

أتذكر مرة واحدة فقط، انتابتني فيها سعادة غامرة. خِلْتُ أنَّ الرائحة تلاشت؛ لم تعد تنبعث من إبطي. تبخرت بشكل نهائي. كنت أمشي حينها في سوق الخضار، وسط الزحام ورائحة البقدونس والنعناع تملآن المكان، تذكرت ما أنا فيه، تنشقت نفسي عدة مرات، ولم أجد لها أثراً، ففرحت.

رجعتُ إلى البيت. فككت أزرار القميص، ووضعت أنفي على كتفي العارية، أووووف!. شممتها مجددًا؛ كريهة، لا تُطاق.

ستقولان ما لنا ورائحتك الكريهة؟ أعرف، لكن ما حدث لاحقا كان مصيبتي التي أقف بين أيديكم من أجلها.

قاطع مرجي باشا المحضر. طلب من الوزير الدكتور أن يدخل في صلب الموضوع مباشرة. تجاهل الوزير طلبه، وألحّ أن يروي القصة كاملة، ومن البداية. فيما انهمك النائب العام في توقيع بعض الأوراق، وتبادل كلمة أو اثنتين مع كاتب المحضر في الزاوية. أخفض النائب العام نظارة القراءة. مدّ ذراعه إلى كتف مرجي باشا يستأذنه أن يفسح المجال للوزير لقول ما يريد. زَوَرَ مرجي باشا الرجلين، لكن الوزير باغت الموجودين

مستأذناً النائب العام لأن ينظر من النافذة برهة، بعد أن سمع جلبة في الخارج.

ضحك مرجي باشا ملء شدقيه. مسح دموعه،. فيما نظر النائب العام مستغرباً. ردّ الباشا، وهو يشير إلى الوزير، حابساً ضحكة صدّاحة: يعتقد أن الناس سوف يتظاهرون لأجله كما حصل في المرة السابقة. لم يفهم النائب العام تماماً ما أشار إليه الباشا الذي لوّى كتفه ليعدل جاكيته، وقال: "أخونا هذا"، وأشار إلى الوزير، "كان في السجن قبل سنة، وخرج بعد اندلاع مظاهرة حاشدة طالبت الحكومة بإطلاق سراحه. تتذكر، حين شكلنا المجلس الانتقالي!".

إذن ؟! سأل النائب العام.

ضحك مرجي باشا من جديد، "هو يعتقد الآن أن هذه الجلبة في الخارج سببها مظاهرة أخرى مثل تلك.التي حدثت أمام مقر النيابة العامة للمطالبة بوقف التحقيق معه.

ابتسم النائب العام، واستقام متوجها إلى النافذة. عاد وهو يقول: "السائقون، دائما يتجمهرون في الأسفل في هذا الوقت من اليوم، وأصواتهم عالية. ما علينا. أين توقفنا؟"

استدرك الوزير تلك الكلمات، ملازماً مكانه دون حراك، مغالباً مشاعر الخجل والفضول. وتابع أقواله:

أقام رئيس الجامعة؛ الدكتور نوري، مأدبة عشاء على شرف ابنه. تزوج، وحالما عاد من شهر العسل، قرر والده أن يتباهى به، وبعروسه الذميمة أمامنا نحن أساتذة الجامعة المتميزين، وبعض معارفه من أبناء الطبقة الراقية.

أنا ابن عائلة، الكل يعرف تاريخها العريق.

تكلفت الحفلة عشرين ألفًا، والعهدة على الراوي، يقولون إن الدكتور نوري اختلس ثلاثة ملايين. ربما أكثر. أسرّ لي رئيس قسم المالية في الجامعة ببعض المعلومات من دفاتر الحسابات.

كان ذلك حين دعاني إلى العشاء في مطعم متوسط الحال. مكان كئيب، الأوساخ والبقع تغطي ملايات الطاولات، والزبائن يدخنون على راحتهم. قال إنه الأرقى في وسط البلد. مسكين. لا يستطيع أن يميز بين مطعم خمس نجوم، وكافتيريا شعبية. يبدو أنه لم يدخل مطعماً فخماً في حياته.

المهم، أراد أن يتودد لي؛ لأتوسط له في إنجاز معاملة «حسن سير وسلوك» لابنه. هذا الواشي. لا أطيقه حين يسرد حكاية ابنته الطبيبة: «الأولى على قرنائها في الثانوية العامة، وحصلت على منحة دراسية في الخارج، وتقدم لها ابن وزير الصحة. رفضته. تريد أن تكمل تعليمها وتحصل على الماجستير و.و!!» قصص. نصفها كذب؛. رجلٌ مملٌ ومقيت.

الأكيد أن رئيس الجامعة اختلس الكثير من أموال صندوق التوسعة. كان يفترض بشركة المقاولات أن تنهي مبنى كلية الطب في سنة ونصف. حسب الاتفاق. مرت أربع سنوات والأعمدة الخرسانية لا تزال منتصبة بجانب أكوام الرمل والحصى، ولا عمّال، أو آليات. وكنا نسأله، ويرد: الشركة ليست سوى مجموعة من اللصوص، وسوف يقاضيها لأنها لم تلتزم بشروط العقد.

حرامي، ابن كلب!

لم أكن أملك إثباتات، أقسمت إن طالت يدي دليلاً واحدًا لأرسلته وراء الشمس. رئيس الحسابات الجبان، رفض إعطائي صوراً عن الدفاتر. مع ذلك كتبت حينها تقريراً بالقصة، وسلمته للعقيد فوزي. هذه التفاصيل الصغيرة مهمة. كل شيء تسمعه مهم. هكذا أخبرني العقيد. هذا واجبي. المسألة لا تتجاوز حب الدولة.

أشك فيه؛ منذ رأيته ينتعل حذاء «بيرلوتي». أعرف هذه الماركة جيداً، كم كنتُ أرغب بشرائها. رأيتُ الحذاء خلف فاترينة عرض بمحل فاخر غرب المدينة.

زرت الدكتور نوري في بيته مرة. كلفه بناؤه نصف مليون، ربما أكثر. أطقم الكنب فرنسية مستوردة. وزّعها على زوايا الصالون، ونصب تماثيل البورسلان فوق منضدة خشبية لمدفأة مطوّقة بقوس رخام أسود، بطراز كلاسيكي قديم، تعلو الحجرة، ثريّا ضخمة من الكريستال، تحجب نصف السقف تقريباً؛ ميَّزْتُها من لمعانها المبهر، ولوحات لفنانين

باريسيين، والكثير من رقع السجاد العجمي غالي الثمن، والقطع الخزفية. الرجل، في الحقيقة، يعرف كيف ينتقي قطع الأثاث والتحف. له ذوق رفيع. صحيح أنه لص، لكنه ابن ناس محترمين.

لم أشتر البيرلوتي، كان باهظ الثمن. جيد أني لم أفعل، وإلا ظنّ الدكتور نوري أني أقلده.

الخلاصة؛ أنه أقام الحفلة في قاعة فخمة في فندق خمس نجوم، كانت فاخرة لا أنكر، الأسقف مزركشة بدوائر هندسية مع قطع من الجبس؛ بأسلوب أوروبي رفيع من العصر الفيكتوري كما أحِبُّه، تمامًا، والأرضية مرصّعة برخام إيطالي أسود يتخللها غرانيت أبيض؛ جعلها رقعة شطرنج كبيرة، والجدران منجدة بلون أخضر منطفئ. لكنها ضيقة، لم تكف المدعوّين.

ارتديت حلة سوداء، خصصتها لمثل هذه المناسبات، هي الأفضل في دولاب ملابسي. والدتي يتولاها الله برحمته كانت تقول، حين تراني بربطة عنق، إني أشبه خالي، رجل الأعمال المعروف بطلته المهيبة. ولا أشبه أبي «الخرف» في شيء.

رششت نصف زجاجة عطر، لا أبالغ حين أقول إني وضعت نصفها على ملابسي.

دخلت بتؤدة؛ خطوة خطوة، مثل ملك يختار قطع البلاط التي يمشي فوقها، نظرت إلى المشهد المضطرب أمامي. حلبة التملق، شبكتُ

أزرار الجاكيت، وأحكمتُ ربطة عنقي إلى ياقة قميصي، وتوجهتُ إلى رئيس الجامعة، قمت بواجبي على أحسن صورة، انحنيت مثل رجل نبيل. أردت تقبيله، لكنه أبعدني. ثبّت يدي؛ حتى أصبحت ذراعه وتدًا خشبيًا يفصلني عنه. خشيتُ أن يكون قد اشتم رائحتي الكريهة، حملق منزعجاً: خنقتني يا رجل. أتستحم بالعطر؟! انفجرت وحيدًا بضحكة صدّاحة، لم يكن لها داعٍ، ولفتت الأنظار من حولي.

كنت سعيداً بما قاله. لم يفهم الآخرون سرّ سعادتي. كررتُ انحناءتي له بابتسامة عريضة. واستدار ليصافح من وقف بعدي. وبالتفافة رجل أنيق، ابتعدت أبحث لنفسي عن طاولة في صدارة الحفل.

كم أحتقر المتسلقين، معدومي الثقة، يطوقونه، ويمشون خلفه. الواشي. رئيس قسم الحسابات. يقف هناك وحيدًا مضطربًا كالأبله، بحلته الرخيصة وياقته الواسعة، يقبض على كأس العصير بكلتا يديه مرتبكاً؛ لا يدري كيف يتصرف بين أبناء الذوات. أما أنا فوقفت منتصباً أشرب، بهدوء وثقة، وأتأمل الجموع المندفعة مثل قطعان برية شاردة. أشرتُ للنادل، ووضعت كأسي الفارغة فوق صينيته برشاقة. ومسحت بكفي كامل بدلتي. هززت رأسي متطلعاً إلى الأعلى؛ لأُظهِرَ أناقتي لمن حولي، وانسجامي الكامل مع المحيط. فأنا أشعر أنني أنتمي إلى هذه الأجواء الباريسية الفخمة.

وضعت يساري في جيبي بثقة عالية، وحررت يميني كي أتمكن من مصافحة من أعرفهم. مشيتُ بساقين مستقيمتين، وجُلتُ بنظري انتقي

لنفسي مكاناً يليق بي؛ كنائب رئيس قسم التربية الرياضية، ومستشار أمني رفيع، وابن عائلة مرموقة. فكل شيء يمكن أن نكتسبه بشهادة جامعية، أو منحة تعليمية، باستثناء الدماء النقية في عروقنا.

أخيرًا استعدت ثقتي. أتجرأ الآن على تكريم نفسي بما يليق بها من طعامٍ فاخرٍ.

رأيتُ شابًا في مقتبل العمر يترك مكانه للتو مزاحماً طابور الواقفين أمام بوفيه الطعام، فسحبت كرسيه، وجلست، ولم آبه لما قاله صديقه. «محجوز، والرجل سيعود.».

ملأت عيني من الخضار المسلوق، والقليل من اللحم المشوي، وبعض الأرز، كنت أحرص على الأكل الصحي. هكذا يأكل أبناء الذوات. بدون كوليسترول أو دهون.

تأكدت من وجود شوكة وسكين. فردت الفوطة البيضاء المطوية على الصحن فوق فخذي، وأخذت وضعية قائمة ومنضبطة، وبدأت أتناول طعامي احتفالاً بزوال الرائحة، وأراقب طريقة من شاركوني المائدة في التهام أطباقهم. كان عملاً همجياً بامتياز. البعض أخذ يمزق الخبز بيديه، ويغمس الشوربة، ويأكل كأنه في بيته، ولا يراعي حرمة المكان وأناقته.

لما انتهيت، وضعتُ ساقًا فوق أخرى، طوقتهما بذراعيّ المعقودتين، ورفعت ذقني إلى الأعلى، وتجاهلت الأحاديث الجانبية التافهة، ثرثرة

لا قيمة لها. اكتفيت بتبادل بعض العبارات المنتقاة بعناية مع زميلتي؛ محاضرة لا أذكر اسمها، في قسم الآداب. وأصغيتُ إلى صوت البيانو مبادلاً العازفة المجرية الشقراء بعض النظرات. حين انتهت، صفقتُ لها بوقار؛ لأظهر لجلساء الطاولة الفرق بين أرغفة الخبز المرنخة بالعدس، ورهافة إيقاعات البيانو الأسود اللامّع!

لم أميّز اللحن جيداً، لكني ملت على زميلتي، وقلت: «موسيقى رائعة. ربما لباخ أو بيتهوفن. أعتقد أنه باخ.» ردت، بابتسامة خفيفة: «ربما!».من المفيد أن تحفظ الأسماء، فقد تحتاجها في مثل هذه المناسبات.

صحيح أني لا أحب الخوض في السياسة، رغم أن عملي في صميم «سياسة» البلد. لكن من يحتاج إلى هكذا تفاهات في هذه الأجواء الساحرة؟ أنا ملم بتاريخ الفن التشكيلي؛ الأسماء وأنواع المدارس المختلفة، والنحت. وأشهر الفنانين، والأبراج بالطبع، صدِّقاني، قراءة الطالع مهمة في الحياة. ضرورية في أحاديث الصالونات، وحفلات الاستقبال.

أعتبر نفسي مستمعًا جيدًا، ألتقط أفكار الآخرين وأحققها، يعني حتى لا أمعن في إدانة نفسي بما لا تستحقه، وأترك لكما مجالاً للتأويل في اتهامي بما لا يصح، أقول إني أستطيع أن أقدم أفكارهم بطريقة أفضل، فلماذا تضيع في عقول أصحابها عبثاً من دون أن يستثمرها شخص متنفذ قادر على تحويلها إلى واقع. فلا توجد حقوق ملكية للنوايا!

ضحك الوزير، متوقعاً أن يبادله النائب العام ومرجي باشا مزاحه. لكن السكون غلّف ضحكته فصمت برهة وواصل سرد أقواله:

(غادرت الحفلة متألقاً. مشيت ثلاثة كيلومترات دفعة واحدة، دون أن أشعر بأني سرت متراً واحداً، عدت مرهقاً بتعب لذيذ، لم يزعجني البرد، ألقيت نفسي على الفراش. نمت بعمق. كم كنت سعيداً!.

أتذكَّر صباح ذلك اليوم. كان شتاءً. استيقظت مخنوقاً مما أنا فيه، رائحتي قتلتني، أخرجتني عن طوري، وخيبتي كانت كبيرة، ما هذا العفن؟! قفزت إلى النافذة. فتحتها على مصراعيها، تحملت برودة الهواء كي أتنفس، أردت أن أتنشق الهواء النقي؛ فأصابتني الأنفلونزا.

أكره الأنفلونزا. أقعدتني ثلاثة أيام في الفراش. فقد اعترتني الحمى، وتعرّقت وزادت رائحتي نتانة، وبلل العرق لحافي برائحة مزكمة ، كانت الحجرة مغلقة تتنفس عرقي.

في نومي حلمت أني خرجت من نفسي إلى الشارع، أركض هارباً منها. قمت من سريري، وتركتها في البيت مع رائحتي. ورأيت في منامي أني كلما هممت بالخروج، تركت نفسي في البيت وحيدة، وأنسَلُّ خلسة، وأخرج. أطبق الباب خلفي بهدوء. ظننت في البداية أنها لا تشعر بي، أبرحها وأذهب إلى العمل.

كان ذلك هو الحل لتلك المشكلة المزمنة، وكانت نفسي، طوال الوقت، تراقب ذلك كله بصمت وحزن، وترمقني أحياناً بغضب مكبوت أشعرني بالقشعريرة. خفت من نفسي، لكني واصلت الهروب منها. كان حلماً غريباً.

اعتلّت نفسي كثيراً، وارتفعت حرارتها أكثر لأني تركتها وحدها في البيت دون رعاية. تجاهلتها كأنها لم تكن يوماً نفسي.

انتبهتُ لها أخيراً. خشيت أن تفارق الحياة، وأنا لاهٍ في حياتي اليومية. أحضرتُ لها الدواء من صيدلية في آخر الشارع، دون فائدة. كنت أجالسها. أضع الكمادات الباردة على جبهتها. أروي لها ما جرى لي في العمل، أحضر لها وجباتها على صينية إلى فراشها. أشد من أزرها، أحثّها أن تأكلَ كي تشفى وتعود قوية، أدسُّ الملعقة في فمها. "واحدة فقط. هيّا" أعيد الطعام كما هو. لم تكن لتتذوق لقمة واحدة من يدي، كأنها مضربة عن الطعام. كرهتني نفسي وكرهتها!

حين عجزت عن مساعدتها، استدعيت الطبيب، وأنّبني بغضب لأني أهملتها. وصاح: كيف تترك نفسك هكذا؟!

تفهمت سبب غضبه الشديد، وخوفه على نفسي، ولم أشأ أن أكتب فيه تقريراً يمنعه من مزاولة المهنة. أنا المذنب هذه المرة. كما أنني أحلم، ولن يفيد التقرير في شيء. تقاعستُ عن القيام بواجبي تجاه نفسي المريضة. غادر الطبيب يضرب كفًا بكف. خشيت أن لا أمل في شفائها، وأن تموت، وأموت كمدًا معها.

أتذكر أنها كانت تحتضر، فأمسكت يدها بلطف، وشددت عليها بحنو، "أرجوكِ لا تموتي". وعدتها أن أتحمل رائحتها، ألا أشتكي من نفسي بعد اليوم. ابتسمتْ، وأغمضتْ عينيها، ونمت حدّها حتى الفجر.

***

نفسي تكرهني!

تأفّف مرجي باشا عدة مرات. نظر حوله ضجرا؛ يريد أن يقذف أي شيء بعيدًا، وتوقف حينما التقت عيناه بوجه النائب العام، الذي كان ساكناً وبارداً مثل قطعة ثلج. قال له كاتماً موجة الغضب في صدره: ألا تلاحظ أن كل ذلك مضيعة للوقت؟!، لم يقل حتى الآن جملة مفيدة. كلام تافه عن حياته، ورائحته النتنة!

أنصت النائب العام، وهو يدوّر بسبابته منفضة السجائر الزجاجية بحركة لولبية. نزع نظارته، ووضعها على الطاولة، وانتعل حذاءه من أسفل المكتب، دون أن يلحظ أحد ذلك. وقف وأخذ يذرع الغرفة؛ عاقداً كفيه خلف ظهره.

توقف فجأة. نظر إلى معالي الوزير، وكأنه تذكر أمراً ما، وقال: «سيادة الوزير. ربما لا تعرف حضرتك المصيبة التي وقعتَ فيها. مضى نصف ساعة، وأنت تهذر بكلام غير معقول. لدينا أشغالنا، والموضوع لا يحتمل اللف والدوران، أرجوك أن تقول ما تعرفه، حتى يتسنى لنا أن نساعدك».

تصبب الوزير الدكتور عرقاً. سحب منديلاً ورقياً من العلبة أمامه، ومسح جبينه، ونظر باستعطاف إلى الرجلين: «أرجوكما اصبرا، ولو قليلاً، فالقصة طويلة بعض الشيء، لكن يجب أن أسردها من بدايتها. عليكما أن تعرفا الأسباب حتى تحكما على النتائج. فأنا لم أفهمها حتى اللحظة، شيء لا يصدقه عقل.

أرخى مرجي باشا ربطة عنقه. فك زر ياقته. وأشعل سيجارهُ من جديد، مشيراً إليه أن يكمل. عاد النائب العام إلى كرسيِّهِ الفخم، وهبط عليه بثقله، فدار نصف استدارة، ودق بإصبعه الطاولة ليؤكد على الموظف حدّه أن يواصل الكتابة.

حين لاحظ الوزير الدكتور، تأهُّب الرجلين، استعاد حماسته من جديد، وبقليل من الثقة، شبك ذراعيه، وأغمض عيناً وحدق بالثانية، محاولاً أن يتذكر بقية القصة. رفع رأسه إلى الأعلى؛ كأنه يلاحق طرف الحكاية. في لحظة سكون، تابع الوزير غمامة أفكاره تشبه سحابة من الدخان المتطاير.، وأكمل حديثه:

«استيقظتُ نشيطاً، في ذلك اليوم البارد. كانت النافذة مشرّعة لريح خفيفة تضرب الستارة برفق. نهضتُ وأخذتُ دشًّا فاترًا. خرجتُ منتعشًا. ارتديتُ ملابسي، رتبتُ شرشف السرير، وطويتُ اللحاف. فتحت الخزانة، وانتقيت قميصاً مقلّمًا؛ يناسب ذلك النهار. انهمكت في تقطيب الأزرار متمايلاً مع موسيقى تطن في أذني. حاولتُ تذكر اسم

ملحنها. ليست قضية ذات بال. فلا يوجد أحد يسألني عن اسمه، أو أبهره بمعرفتي الواسعة في الموسيقى الكلاسيكية.

تجمدتْ مفاصلي. وقلت: مهلاً، من أين تأتي الموسيقى؟ التلفزيون؟! من أشعل التلفزيون؟!

سمعتُ صوتَ قرقعةٍ خفيفةٍ في المطبخِ، فارتعشتُ خوفًا، وفكرت أن أبقى في غرفتي، واختبأت تحت السرير. كان هدفي أن أتبين الأمر قبل أن أُقدِمَ على أمرٍ متهورٍ، قد أندم عليه لاحقاً. الحيطة واجبة. والأصوات تتلاحق. وتصيبني بالجزع.

جاهدتُ نفسي على البقاء أطول مدة ممكنة تحت السرير، متجمدًا من دون حراك. لا داعي للاستغراب، لدي قدرة هائلة على الصبر.

غفوتُ، دون أن أشعر. أيقظتني ضربة عنيفة. التزمتُ الصمت بضع دقائق أخرى. أنصت. الهدوء عمّ المكان.

نهضتُ وتسللت إلى المطبخ، وقبلَ أن أدخلَ أرهفتُ السمعَ قليلاً. عاد صوتُ ملعقةٍ يصطك بالطبق. أحدهم يأكل على طاولة مطبخي. فكرت: قد لا يكون لصاً، وإن كان، فلن يؤذيني. ربما جاء ليأكل، لا أكثر، وعندما يكتفي سوف يغادر. ظننت أن والدي «العجوز» قد هرب من دار المسنين، وعاد إليّ. استرقتُ نظرةً خاطفةً. بالفعل إنه رجل يجلس إلى الطاولة. لم أتبين ملامحه جيدًا. كان يحني رأسه ويهتز بمضغ الطعام.

التقطُّ مشهداً سريعاً. حاولت أن أطيل النظر. كان يتناول طعامه

برويّةٍ.

استدرتُ بسرعة. لم أصدق. ارتجفت فرائصي. التفت إليه ثانية. أرعبني شكله، ليس لأنه توقف عن مضغ الطعام، ونحى الملعقة جانباً، متأهباً للقيام بأمر لا أعرفه، أو لأنه يحدق فيّ مباشرة، ولكن. لأنه يشبهني، له ملامحي نفسها، إنه نسخة عني، إنه. أنا.

لستُ أنا، لكني هنا. أجلسُ على مائدتي، كالمعتاد أتناول الفطور. سمعتُ الموسيقى الصادرة من التلفزيون. وطرق باب البيت، أو كأني أتخيل. هاتفي النقال يرن ويرن، لا يتوقف عن إطلاق النغمة نفسها كل ثانية. أصوات متلاحقة اقتحمت رأسي وملأته ضجيجاً. لا أفهم ماذا جرى حولي!

شعرت بسقف الصالة يدنو مني، رفعتُ يديّ كأني ألمس سطحه الخشن، أو ضوءه الساخن، فوق رأسي مباشرة. تهيأ لي أن الجدران تطبق عليّ وتصغر وتصغر .

لم يكن مناماً كما تمنيت، انتظرتُ كي استيقظ، كان الرجل يشبه نفسي التي رأيتها منذ ساعات في الحلم. النظرة حانقة، وقد اكتست حسرة ذابت في تكشيرة وجهه الخرساء.

وقفت مجابهاً نفسي تقترب مني بهدوء، كنت في الثالثة والأربعين، وكنت أراني عدة مرات، كل يوم في المرآة، صدقاني، لم أخف في حياتي من وجه يمعن النظر في وجهي، كما خفت من ملامحي في تلك اللحظة.

فركت عيني بقوة، ومسحت وجهي، وأزحت كفي بهدوء أخطف نظرة إلى هذا الشبح في مطبخي. كان منتصبًا أمامي، واقفًا بقامتي، وبيجامتي، وشعري الأشعث الذي أصحو به من النوم. نظراتي الضاربة في الفراغ. صامتًا يحدق في وجهي. حادًا يتربص بي.

عدتُ إلى الخلف خطوتين، تقدم هو خطوات. عاودت الرجوع. ركضت. فتحتُ الباب وهرعتُ إلى السلم. نزلت مسرعاً، حافي القدمين. لم أنظر للخلف، قفزتُ درج سلم البناية في دفعتين أو ثلاثة، إلى أن وصلت بوابتها، ولم أتوقف حتى اعترضني أحد المارة على الرصيف وكدت أقع.

أفقتُ من غفلتي، نظرت إلى شرفة شقتي في الأعلى، كان وجهه الصغير فوق، دقيق الملامح، لكنه رأسي، يطل عليّ من وراء سور الشرفة، يلاحقني إلى الأسفل، يقسم أنه أنا في بيتي، وأنا هنا في الشارع، كلانا موجودان، إنه لا يشبهني فقط، إنه نسخة عني، بل يكاد يكون أنا.

صرت أدور أمام بوابة البناية مذعورا، أقدم ساقًا إلى الداخل، وأعيد أخرى.

حافي القدمين. أرتدي سروال نومي. من يراني سوف يضحك على منظري. ماذا لو رآني «جاري فضل»؟ الهيبة والشهادة والمنصب والعائلة، كل ذلك سيزول في نظرة ساخرة. لا أقبل ذلك على حالي، ولا أقوى على الصعود إلى بيتي طالما توجد نسخة مني في الأعلى! ماذا أقول للناس؟ ثمة أنا في بيتي. أيقنت أني قد أصبح أضحوكة الحيّ.

القرفصاء، أفكر. ماذا رأيتُ بالضبط فوق؟ شبح؟ يعقل؟!

زاد خوفي، وقررت الصعود إلى شقتي مهما كلفني ذلك. ارتقيت الدرج. دفعت الباب، لم يكن مغلقاً، طفت بالبيت غرفة غرفة، لا أثر لهذا المخلوق.

تأكدت أنه غادر، أو اختفى لا فرق. ذرعت الغرف مرة ثانية؛ أبحث عن رجل يشبهني في بيتي.

رميت ثقلي على السرير، جلست حدّ النافذة، أحاول أن أتذكر ما جرى، أعرف أني هلْوَسْتُ كثيراً في مرضي، هل جننت، أم ما زلتُ أهذي؟!

كثيرون يرون خيالات في يقظتهم، وما أكثرهم في عائلتي، نصفهم في مستشفى المجانين، خالتي أصابها الخرف في الخمسين. وأذكر كيف ربط «العجوز» والدتي بالحبال، وسجنها في قبو البيت ثلاثة أشهر حتى صارت تردد عبارات لا أفهمها، ولما سأله أهلها قال: مسحورة، لعنة الله عليها لولا أن جاء خالي في اللحظة الأخيرة، وأنقذها من الموتِ؛ جوعاً اقتحم الدار قبل أن تلفظ أنفاسها. كسر الباب بمرفقه، ضرب «العجوز» على صدره وأبعده جانباً، وحمل والدتي بين ذراعيه، وغادر، ولم أرها ثانية إلا في كفنها.

ابن عمي، عندما عاد من الحرب، قتل أخته وعمي، وحاول اغتصاب جارته قبل أن يزفه أولاد الحي إلى المصحَّةِ بالحصى والعلب

الغازية الفارغة.

لماذا نذهب بعيداً؟!

زميلي مصطفى في المكتب، لما تركته طليقته. أخذت أطفاله وهربت دون رجعة.

مهلاً. لا تنبعث مني رائحة نتنة، أين رائحة السمك النافق؟ ماذا جرى؟ كيف اختفت؟

هذا جيد، إذا كان زوال رائحتي، يتطلب رؤية شبح في بيتي، ليكن!

تمالكتُ أعصابي. ابتهجتُ بانتهاء محنتي، تخلصتُ أخيرًا من مرارة كراهيتي لنفسي. لم يكن جيداً أن أنفر من نفسي، إذا كان هذا شعوري تجاه نفسي أنا، فماذا عن الآخرين؟!

تأنقت، وخرجت أتبضع. ينقصني بعض الأغراض؛ خيار وخبز وعلب سردين. لا لن أشتري السردين طوال حياتي. أجبان، وبعض مواد التنظيف، وبخاخات عطورٍ منعشة، أريد أن أملأ البيت عبيرًا. لا ضير من إنفاق بعض المال. الأمر يستحق الاحتفال. تناسيت ما رأيته صباحاً وخرجت.

***

خرج مرجي باشا عن طوره: «لا لن أسمع أكثر من ذلك. هذا مجنون رسمي!»، صرخ بأعلى صوته. جفل الوزير مَفْزُوعاً من حدة الصرخة.

انتصب الباشا كثور هائج. أمسك بملف على المكتب، وقذفه في وجه الوزير، الذي لاذ بأسفل الطاولة. أراد النائب العام أن يلقف الملف، فتناثرت أوراقه على الأرض.

اندلعت جلبة في الغرفة الفسيحة، وانهمك الموظف الصامت في لملمة الأوراق، وانحنى الوزير يساعده، فزعق النائب العام فيه. «لا تساعده. انهض!» زاد صراخ النائب العام وارتباك الوزير الذي استعاد جلسته، ودلّك بدلته ليتأكد أنه لا يزال مهندما كعادته. أعاد خصلات شعره إلى أعلى جبينه، وأخذ يشهق بقوة.

حاول النائب العام أن يهدئ من روع الباشا. دون فائدة، حتى دق جرس التلفون. بهت الجميع يبحثون عن هواتفهم النقالة في جيوبهم. انتبه الباشا إلى الرنة. حشر كفه في جيب بنطاله، ووضع نظارة القراءة على أنفه. أمعن النظر. وعندما عرف المتصل. أخذ نفسين، وضغط الزر، مستعيداً رزانته المعتادة.

«ألو، مساء الخير. مرحبا فخامتك. نعم. نعم.»، تابع مرجي باشا مردداً «نعم» عدة مرات. وبعد دقائق، دسّ هاتفه في جيبه. وجحر النائب العام بنظرة حمراء. فبادله الرجل نظرة وادعة، زمّ أصابعه. وطلب منه أن يهدأ. «أرى أن تذهب إلى خارج المبنى، تنفس هواءً نقياً، وارجع يا باشا».

مسح مرجي باشا شفتيه بظهر كفه: «كلا، سأبقى وأمري إلى الله». لوّح بإصبعه للموظف، أن يذهب ويفتح النافذة؛حتى يبدد دخان السجائر. نهض الموظف باضطراب. شق الشباك، وأسنده بكرسي؛ حتى لا ينبلج على مصراعيه فتدخل عاصفة مدوّية تحيل أوراق المنضدة إلى أطباق طائرة.

ابتسم النائب العام بخبث، وقال ساخراً. «نحن نتسلى يا باشا. اتركه يكمل أرجوك، أريد أن أسمع كامل التفاصيل. والله إنها قصة مشوّقة».

لم ترق هذه الكلمات لمرجي باشا. لاذ الوجيه بسيجاره، وحدّق بحنق في وجه الوزير، الذي أشاح وجهه عنه مخاطبا النائب العام:

(ذرعت السوق طولاً وعرضاً، فاشتريت كل ما أحتاجه. جلست في القهوة ساعة، وقرأت العناوين في صحيفة تركها زبون قبلي. حاولت أن استمتع بكل دقيقة في الهواء الطلق. شربت فنجانين من الشاي الإنجليزي الفاخر. أضفتُ له الحليب، بعد أن طلبت من النادل، أن يسكبه في فنجان، أحب هذه العادة العريقة عند الغروب.

أنهيت مهمتي في السوق، ورجعت. اقتربت من الشارع الخلفي لبنايتي، رأيت انعكاس صورتي في زجاج واجهة أحد المحال. عادت

ملامح وجهي إلى ذهني مرعبة ليست لي. لرجل آخر صقل صورته فوق الزجاج يقلد حركاتي ويستفزني. اقشعّر بدني مني. ماذا لو عدتُ ووجدته في بيتي، يأكل في مطبخي، أو يتغوط في حمامي؟! استرجعت شكله واقفًا أمامي يحدق، ولا يُظهر أية تعابير. نظرتُ أعمق في هذا الرجل الذي هو أنا، تذكرته جيدًا. كلما أمعنت النظر فيه، رأيتُ نفسي، أخافتني تلك الفكرة السوداء. أخافتني نفسي كثيرا، ونظرتها المنكسرة والغاضبة في ذلك الكابوس.

وصلتُ شقتي، رأيت جارتي تحمل كيس الزبالة، وسألتُها إن كانت قد رأتني أدخل بيتي. ردت: «نعم؟!». قلت لها: لا عليك. تركتُها ومشيتُ إلى باب شقتي. أصغيتُ؛ واضعاً أذني على بابي، ومن يراني سيقول ماذا يفعل هذا المجنون، يتنصت على نفسه! أدرتُ المفتاح. دخلت. اصطدمت بغباش أسود. منذ صغري أكره العتمة. فقد كان «العجوز» يحبسني في قبو بيتنا القديم، كما فعل مع أمي.

كان واسعاً ومخيفاً ذلك القبو. سقفه العالي يخلي مكانًا للأشباح لتحلق فوق رؤوسنا، وغرف البيت مستطيلة وضيقة، كأنها ممرات مغلقة. أبوابه كثيرة، وشبابيكه صغيرة، محكمة بأقفاص حديدية صدئة، تزرع فيك شعورًا خانقًا بالأسر والوحشة.

أغلقتُ الباب خلفي، المكان هادئ ومريب. أنرتُ الصالةَ. انقشعَ الظلامُ عن قطع الكراسي الخشبية التي اشتريتها من محل بيع أثاث الأنتيك في أحد المزادات. تسحبت بخفة إلى غرفة النوم، فخلعت

معطفي، وألقيته على السرير. تفحصت الغرفة بنظرة سريعة، الحمد لله لا أحد. كان مجرد حلم لا أكثر. هواجس المرض. كل شيء في مكانه، «مهلاً!» باستثناء. حذائي الأسود أسفل الخزانة. جفلت، الحذاء! لا أتركه هنا أبدًا، له مكانة عزيزة على قلبي. أعرف جيدًا أن الحذاء سر أناقة الرجل. لهذا؛ أحتفظ به في مكان خاص ولائق.

«أين كنتَ؟!» جاءني صوته حادًّا؛ كنصل شق رقبتي من الخلف. كان في الغرفة الثانية، ينتظرني في العتمة. انتفضت. أطلقت صرخة عالية، نفختها من أذني فخرجت حادّةً ورفيعة. تغيرت قسماته الصارمة، وحلّت نظرة ناعسة تتراقص بتهكم في عينيه البيضاويتين، كأنه يتحرش بي!

كنتُ أنا أو هو. الأمر سيّان. رجل يشبهني تمامًا. ليس حلمًا أشكّك فيه، وأخلق له تبريراً. أو هذيان الحمى يصمت بعد أن أبرد.

ها هو يقف قبالتي، مخيفاً لأنه أنا بلحمي ودمي. ليس لأنه رجل غريب في بيتي، بل لأنه أنا، لا شيء يجدي حتى الخوف من انتظار ما سيفعله هذا الأنا بي.

رأيته يتعرف عليّ لأول مرة، يغوص في تعابير وجهي، يدرك أنه أنا كما أدرك أنني هو.

«هذا صوت فتاة». قالها، وتابع: «لم تجب أين كنتَ؟». خذلتني شجاعتي. لملمتها على عجل، وأجبته بسؤال آخر: «من أنت؟»

- أنا أنت! أجاب بسخرية.

- لم تُجبْني، أقول لك من أنت؟

- أجبتكَ. أنا هو أنت، صدق أو لا تصدق!

- لا تسخر مني يا هذا.

- كما تراني، رغماً عن أنفك!

- يعني ما رأيته سابقاً كان حقيقة؟

- وما تراه الآن؟.

قال عبارته وأجبرني على الجلوس على السرير، مفسحًا لنفسه مكانًا قربي تمامًا.طوَّقني بذراعه، وكأنه يعرفني منذ زمن، وهمس: "لا أدري كيف حصل ذلك. نظرت فوجدتك في الشقة، نسخة مني"، شدّ ذراعه وضمني إليه. أثار اشمئزازي برائحته الكريهة التي تشبه رائحة السردين. أطبقتُ شفتيّ المرتجفتين على بعضهما، وتابع:

- لا أعرفُ كيف أتيتَ أنتَ إلى هنا، لكن طالما أن الوضع كذلك، عليك أن تحسن التصرف.

- ماذا تقصد؟

سألته، مَفْزُوعاً: يقولون إن سفينة واحدة لا يقودها قبطانان، أليس صحيحاً؟!.

قال: لا مجال للتناوب. عليك أن تقبل وضعك الجديد، وتلوذ

بصمت طويل. طويل. وأشار بإصبعه إلى المجهول.

نهض من مكانه وتركني في نكبتي يأكلني الخوف والحيرة، غريمي اليوم هو أنا. كيف سأتمكن من هذا المستنسخ؟!

نظرت من شق الباب إلى الرجل. يُعد طعامَ العشاءِ من بِقالتي التي اشتريتها لتوّي. يتحرك في المطبخ، يعرف أماكن الملاعق والأطباق. كأنه عاش هنا دهراً، وأنا اليوم غريبٌ في بيتي، جائعٌ، ومنهك).

سمع النائب العام طرقاً على الباب، فطلب من معالي الوزير أن يتوقف قليلاً. دخل رجلان؛ تباعاً، وبعد أن أطالا حديثاً حساسًا، بشأن تفاصيل قضية الفساد العالقة منذ شهور. خرج النائب العام يرافقهما كي يواصل حديثه في مكتب قريب. استدار وخاطب مرجي باشا: «دقيقتان فقط، لن أتأخر.» والتفت إلى الوزير: «معاليك أرجوك انتظر عودتي، قصتك مسليّة!».

حاول مرجي باشا أن يقنع الوزير بقول الحقيقة. قال له إن ذلك في مصلحته، وأن كل ما قاله حتى اللحظة لن يفيده في شيء. وأن منصبه في خطر، ورجال كثر يحاولون النيل من الحزب.

أدار الوزير رأسه عدة مرات، رافضاً تلك التعليقات. لم

تقنعه حجة الباشا، وقال بحزم طفل: «يجب أن تسمع قصتي لآخرها حتى تصدقني، ذلك الرجل الذي هو أنا، ولست أنا يقف وراء كل هذه المصائب التي نمر بها».

رجل السردين

عندما عاد النائب العام مسرعاً إلى كرسيه، تابع الوزير سرد حكايته:

(في الحقيقة. لم أشأ أن أفتح مع نفسي حديثًا، ولو عابراً لكن لم أجد بدًا من ذلك، هل أنت حقيقي؟ سألته. تجاهلني. مر بجانبي، فرأيته عن قرب، حتى لامس كتفه صدري، وشممت رائحته الكريهة. لا شك أن تلك الرائحة قد انتقلت إليه. كيف؟! لا تسألاني.

دخل غرفتي. بدّل ملابسي. سرّح شعري. وفتح جارور خزانتي. تناول بنطالاً عن العلاقة. انتعل حذائي. نظر في مرآتي؛ يتأمل نفسه. تأملني، أطال النظر، وابتسم، كعادتي حين أرى صورتي. وأحفظها عن ظهر قلب، حتى لا أنسى من أنا أو من هو. مرّ تاركاً عفنه يزكمني.

جلست قبالته. أتفحصه بعناية، «أنت أنا إذن؟!»

كان باردًا؛ مثل قطعة جليد.

- هذا ما يتراءى لي.

ظل وجهه صارماً مثل صخرة. تحرك وهو يعرف تماماً ماذا يريد، لا يعيرني انتباهاً، يمارس طقوسي اليومية، ويغادر. كأن مهمتي في الحياة توقفت، وحان دوره في سباق التتابع!

- ماذا إن قلت لك أخرج من شقتي. هل تسمعني؟ ماذا لو قلت لك غادر الآن. سوف أغلق عيني وأعد إلى الثلاثة، وأفتحهما، وتكون أنت اختفيت. حسناً؟ واحد. اثنان. ثلاثة.

الحقير! أراه منشغلاً بالتهام طعامي دون أن يكلف نفسه عناء النظر إليّ.

- من المجدي أن تصغي إليّ.

أزحت الطبق من أمامه، وانتشلت الملعقة من يده. ألقيتها بعيداً، ورأيتها تتطاير حتى استقرت في زاوية المطبخ.

وقف بقامته دافعاً الكرسي إلى الخلف بساقيه. طويلٌ مع أنه نسخة عني. وما لبث أن توارى عن ناظري. دخل غرفة النوم. سيعود، لا شك أنه سيعود؟

نعم، عاد. جاء يلف طرف الحزام حول كفه تاركاً المشبك الحديدي الثقيل يرقص في الهواء مثل حيّة رقطاء. لم يكن أنا. إنه "العجوز"، يغلي الدم في مقلتيه، هكذا رأيته تماماً، تنفر شرايينه الحمراء فوق رقبته. تغزو الأخاديد بشرته الجعدة. تحفر أخاديد الزمن ذقنه الخشنة البيضاء. شعره الأشيب يتدلى على كتفيه خصلاً متباعدة، وغرته تغطي حاجبيه. رائحة

الكحول تفوح منه. كل شيء مقزز انبعث منه ذكرني به.

أين رجل السردين، وماذا يفعل "العجوز" في بيتي، من أين جاء؟!. أودعته بيدي هاتين دار المسنين. وهو بالكاد قادر على الذهاب إلى الحمام. كيف أصبح بهذه القوة؟!

جلدني ولم أجد وقتًا لتفسير ما يحدث. مزقني بالحزام كما كان يفعل دائماً. ألقى بي إلى ركن الغرفة البعيد، أطفأ نورها لأنه يعرف أني أخاف العتمة، وضع سبابته فوق فمه. وقال بصوت صارم: "هسسس، سأغلق الباب. يا ويلك ويا سواد ليلك إن رأيت بصيص النور من تحته."

أوصده بقوة تاركًا كحلها يغمرني. يُغرقني في عمقه اللامتناهي، تكورت في مكاني، وأطبقت جفني. بكيت بحرقة. هي المرة الأولى التي أبكي فيها خلال ثلاثين سنة.

صرت أنادي: "أبي افتح الباب. أرجوك. أنا خائف". صحت بأعلى صوتي: افتح الباب. افتح الباب.

ضربت الجدار بقبضة يدي، ولذت بصراخ متواصل، اصطنعت ضجيجًا حادًا لأهرب من خوفي، قتلني السكون، وخلق خيالات ترعبني، أصوات وصفير وأبواب تصفق. أجهشت في صياح مجنون، حتى اندفع الباب إلى الداخل بقوة. دخل المستنسخ، عاري الصدر. يمسك عصاً ويحمل وجهي. وجهاً أكثر قساوة هذه المرة.

هوى بعصاه عليّ، لمعت عيناه في شحوب الغرفة الذائب في ضوء

الصالون، قرّب وجهه مني، وقال وهو يصرّ أسنانه على كلماته: "أنت جبان وضعيف، وستظل كذلك، يا ابن أمك. رشقني بلعابه المتطاير. أخرج من بيتي، اذهب للبحث عن شيء تفعله. لا أريد أن أراك هنا ثانية".

غادر وأوصد الباب بالمفتاح، لا أتذكر ما جرى لاحقًا. نمتُ ودوامة تدور بي. لم أتجرأ على التمدد على سريري. بقيت مسطحاً فوق البلاط البارد.

استيقظتُ مذعوراً، خرجت أبحث عن "العجوز". ناديت: "أبي. هل أنت هنا أيها العجوز؟!" رأيتُ من يشبهني؛ رجل السردين، يدخل الحمام. شَخَصَ بي ضاحكاً، "العجوز" من يا أخرق؟! إنه في دار المسنين.

كنت جائعًا انتظرته حتى أطبق الباب، فتحت الثلاجة. وتناولت خبزاً وقطعة جبن على عجل. التهمت الرغيف بقضمتين. أراقب باب الحمام، أبتلع ولا أمضغ. "من سيخرج من الحمام هذه المرة؟! "العجوز. أنا. أم أمي الميتة.".

خرج هو. لا يفترق عني في شيء. حركاتي، الواحدة تلو الأخرى ككل صباح لا تتغير. بدّل ملابسه. التفت، وتكلم بنبرة واضحة: "لا تحاول الخروج، أنت مشكلتي الآن. حين أعود، سأجد لك حلاً. ماشي؟!".

"ماذا يقصد بأنه سيجد حلاً؟ من المؤكد أنه ينوي القيام بشيء ما، هل ينوي أذيتي؟!". وإلا لماذا يعتبرني مشكلته؟ أليس كذلك؟ أية ورطة هذه؟!

أقفل الباب، ولم يترك لي المفاتيح، كيف أخرج؟. حبسني وغادر، هل ذهب إلى عملي، هكذا بكل بساطة؟!

أردت إيجاد حلٍ للمعضلة. هل ما أراه هلوسة؟ أم جني تقمصني، أنا مركوب بعفريت؟! لكن كيف، وأنا هناك في مكتبي؟ هل يستطيع الجن أن ينسخ مني رجلاً يشبهني؟ لم أسمع عن ذلك في حياتي

اتصلت بمقسم الجامعة. طلبت من موظفة البدّالة أن تحولني إلى مكتبي، سمعت صوته يقول: "ألو ألو". وضعت السماعة. أدركتُ أنه أنا. اتصل بي، أجبته، كرر ما قاله صباحاً: "لا تحاول الخروج" أقفلت. تنفست بصعوبة من شدة الخوف.

قلت في عقلي: "يجب أن أهدأ قليلاً، وأفكر". أعددت فنجان قهوة. لو كان حقيقياً، سيكون أنا. وسأكون ضرباً من الخيال. هو لا يشبهني فقط. بل أنا فعلاً. قلباً وقالباً. يعني هناك اثنان مني، أحدهم هنا يشرب القهوة، والآخر هناك لا أدري ماذا يفعل، وبأي طريقة يستغل هويتي.

هل أقتله. وأنا الذي لا يجرؤ على قتل نملة؟ أنا أخاف أن أموت إن قتلته. لا أريد أن انتحر بمجرد قتل شخص يشبهني، لا أتخيل نفسي ممسكاً بسكين أطعن رجلاً هو أنا! إنه شعور مرعب. كيف أتخلص من

نفسي، وأبقى على حالي في وقت واحد؟!

قضيت ساعات أفكر.

حتى تتخلص من أحدهم ولا تقتله. عليك أن تسلبه حياته، تقطّر الماء من جسده. تتركه يجف. أو يتبخر. لكن هو من يفعل ذلك بي.

ماذا إن عاد وقرر قتلي؟ ماذا إذا كان يملك الشجاعة لفعل ذلك، عكسي تماماً، ماذا إن كان دوري في الحياة قد انتهى، وجاء دوره من شرنقة انشقت فولدت مسخاً كريه الرائحة.

تُرى، هل هذه حياة الآخرين. يتابع من يشبهونهم حياتهم عنهم دون أن يدري أحد بذلك، أم أني استثناء لا أكثر؟!

سمعت دبيب خطواته على الدرج، يلقي التحية على جاري فضل. يتبادل معه الحديث المعتاد معي. أتيا على ذكر العقيد فوزي. صوته كان مرتفعاً. وفجأة أصبح همساً. كأنه تعمد ألا أسمع ما يقال.

أمسكت سكيناً، وأخفيتها تحت قميصي. يجب أن أستعد. نعم، يجب أن أستعد. دخل واغتسل، تناول عشاءه. تجاهلني. نام. هكذا بكل بساطة، استلقى على سريري ونام، وكأن النوم في فراشي يجعل منه صاحب المكان. إنه لا يخشاني. مطمئن بأني لن آتي على فعل يضره. يعرف الخوف الساكن في ضلوعي، يعرفني تمامًا.

كنت في الصالة أدبر طريقة أتخلص بها منه إن حاول الاقتراب مني. لا حيلة لديّ سوى الانتظار. بقيت متيقظاً طوال الليل، وكلما سهوت،

استفقت مذعوراً. قتلتني لحظات الترقب. الدقائق تمر كأنها ساعات، والليل أصعب، وفي النهار أتناول ما أستطيع أكله على عجل، أقتات كمن يتحضر للحرمان في سبات الشتاء، أغفو لساعة أو ساعتين، وأستيقظ مهووساً بفكرة موتي على يديّ.

لم أعتد الحبس، وأين؟! في شقتي! وضع لي، من يشبهني لحافاً ووسادة في تلك الزاوية. خمنته يقول: أنت على الأرض، وأنا هناك فوق السرير.

يأتي ويمضي ولا ينظر إليّ، صرت قطعة أثاث بالنسبة له، تجاهلني حتى نسيني تقريباً، أفسح لي ذلك مجالاً للتفكير، تراجع قلقي مع مرور الوقت. أعطاني ذهنًا صافيًا لأتمعن في حل لمشكلتي. فكرت أن أخبر العقيد فوزي. ربما يقبل ويستخدم نفوذه ويعتقله ويخفيه عن وجه الأرض. سيتفهم. نعم سوف يتعاطف معي. فهو يعرف قيمتي. والسلك في حاجة ماسة لخدماتي. بالتأكيد هناك أمر أتميز به عن رجل السردين. سأقول إنه شخص يشبهني ويحاول ابتزازي لخداع الدولة. أو أنه توأمي الذي يتآمر على النظام.

هل يعقل أن الرائحة الكريهة التي كانت تفوح مني مقدمة لظهوره في حياتي؟!

إنه أنا يحمل ذاكرتي، وعاداتي وحركاتي وسكناتي. كأنها سيرتي توقفت عند نقطة. وانشق شخص من جلدي. نسخة طبق الأصل عني. مستنسخ أصبح أنا. ووقفت في لحظة سكون. لا دور لي في الحياة.

سوى أن أجلس في بيتي، وأنتظر عودته من العمل. والمقلق أنه لن يُطيق وجود نسخة منه تهدده في كل لحظة. سيكون الوضع إما أنا أو أنا.

كيف أتخلص من نفسي؟ هل جاء من لحظة مرضي، وزاحمني مكاني. واحدٌ فقط يجب أن يبقى، والآخر يرحل. لست أنا بالتأكيد. من الصعب أن أقنعه بالرحيل، إلى أين يعود؟! لكن من أين أتى؟ واضح أنه يعتزم البقاء.

هل تقبل أن تهزمك نفسك؟! واجهت خصومك، بحثت عن نقاط ضعفهم، لم تكل ولم تمل، تحسست بطونهم الرخوة، غرست خناجرك تباعاً في ظهورهم العارية، في العتمة.

أما هذا الشيء هو أنا. عليّ أن أعرف ضعفي. لأبلغ قوتي.

ماذا لو لم يصدقني العقيد فوزي؟! ماذا لو رجحت كفة رجل السردين عنده، وأقنعه ذاك بأني أنا الدخيل. فتصبح مصيبتي مضاعفة؟! ماذا لو كنت أنا النسخة وهو الأصل؟!

أهذا أصرّ على البقاء في بيتي، ليست أوامره. بل خشيتي من فكرة أن يكون هذا الرجل حقيقياً، وأنا مجرد نسخة عن نفسي، فقاعة لا ترى سوى نفسها. أراه يتحدث مع معارفي بكل ثقة. وقدّرت أنه يحاضر في جامعتي. خشيتُ أن أكون مجرد طيف. شيء زائف. عارض في هذه الدنيا انتهت مهمته. وأوكلت إلى من يستحقها!

انتظرت أيامًا أن يأتي أحد زملائي ليطمئن عليّ. أو جاري فضل.

هذا ما يفعله الأصدقاء عادة. لم يطرق أحدهم بابي. على العموم كيف يفعلون وهم يرونني كل يوم بينهم في الجامعة، وكل هذا الشبه يجمعنا كأننا أكثر من توأمين؟ أي فكرة غبية طرأت على بالي؟ أجهل أني معلق بين الوجود والعدم. زائد على الحاجة، ما دام هناك من يحل مكاني، ويقوم بمهامي.

خلت جسدي يتلاشى لأجله، يفسح مجالاً له. ساقاي لا تقويان على حملي، بالكاد أذهب إلى الحمام. أتلهف للعودة إلى زاويتي في الصالة كي أستلقي هناك وأنام. لم تعد بي رغبة للقيام بشيء. كأنني مقعد. مشلول ينتظر أحدهم ليدّس ملعقة في فمه. فقدت كثيراً من قوتي، وآدميتي ووزني.

رأيته يستولي على مكاني، وممتلكاتي، ويسرق إسمي. سلبني كل شيء، لكنه لم يتخلص مني. أهملني هناك في الركن الميت ليمحوني الزمن. مثل قطعة أثاث بالية يتقاعس أصحابها عن إلقائها خارجاً لأنها كبيرة الحجم لا تمر من الباب لا أكثر.

بكيتُ. بكيتُ بحرقةٍ. من دون صوت. نحبتُ. أنا عاجز تماماً. مركون في عتمة الكون. أنتظر حكماً بالإعدام. لتنتهي فصول حكايتي؟!

سمعته في تلك المرة، يتحدث إلى صديقي فوزي على الهاتف، تكلم نصف ساعة. غمغم أحياناً، وأطلق جملاً عالية ومتبجحة، كأنه قائد عسكري يتحدث عن فتوحاته. علت نبرة صوته وخفتت، مثل سيارات تمر خاطفة على طريق سريع في منطقة نائية.

أخرج رأسه من فرجة الباب الموارب. أطل عليّ؛ ليتأكد أني منزو في مكاني. أو ربما أراد أن يغيظني لأنه يمسك بآخر ورقة كانت في يدي.

تبادَرَ إليّ أنه جالس يكتب تقريره الأسبوعي. أقصد تقريري أنا. رأيي ورؤيتي التي أرفعها إلى القيادة. توصيفي للوضع الأمني. لا يكتبه أحد سواي. إنه أنا من يجب أن يكتب هذا التقرير. لا أحد غيري. صرخت. ناديته باسمي دون أن أشعر، لن أقّر له باسمي. استشطت غضباً. لقد مسّ أعز ما أملك. وطأت قدماه المنطقة الحرام.

إنه يستولي على تفاصيل حياتي كلها، لا يترك لي شيئًا أتشبث به لأظل أنا.

"أنت، افتح الباب." تطاير الشرر من عيني. رآني أستعين بمقبض الباب كي أعتدل على ساقيّ الضعيفتين. أسير وأسند حالي إلى الخزانة. لم يسعفه الوقت ليتأهب لهجومي المروّع. باغتّه، واستجمعت ما تبقى من قوتي، قفزت فوقه بثقلي. سحبت الورقة من يده، ومزقتها قطعًا صغيرة. نعم مزقتها، ولم اتكلف عناء النظر في محتواها. كيف يتجرأ ويسرق مني أعظم أعمالي. كيف يسمح لنفسه أن يحتل بيتي، ويسرق حياتي، واسمي، ووجهي. والآن يسلبني روحي.

أمسكته من قميصه، هززته بعنف حتى أوقعته أرضاً.

«هذا واجبي الوطني، إنها مسؤولية كبيرة، أنا من يكتب التقارير، قد تستحوذ على ملامحي وتحاصرني في بيتي، وتحاضر في جامعتي. أما

هذا فلا. هذا واجبي الوطني، مهمتي العظيمة، هل تعرف كيف تُكتب التقارير؟ هل تعتقد أن الأمر بهذه البساطة، وتكتب. يا نكرة؟».

أنتَ لستَ سوى نسخة كريهة الرائحة. ولدتَ في لحظة ضعفي. «من علمك كيف تكتبَ؟ أنت لا تعرف كيف تكتب المقدمة حتى تكتب البقية».

هذا واجبي أنا ابن الدولة؛ آمر وأنهى. وبسطر واحد مني أحرك أركان الدولة، أضع خططاً واستراتيجيات، كلامي يحفظه المسؤولون عن وجه قلب، إلهامٌ لهؤلاء الجهلة، أنا أعلمهم كيف يديرون البلد، كيف يأكلون، كيف ينامون، أنا أعلم البشرية كيف تصنع الحضارة، يلتقطون أفكاري التي أبعثرها ورائي. يملؤون عقولهم الفارغة بكلماتي.

أنتَ لستَ أنا أيها الحقير. حتى إن كنتُ أنا. لستُ أنت!

شاهدته يدور حول نفسه وينهض؛ مثل أفعى رقطاء. دفعني بذارع واحدة صلبة وقوية لم أعهدها في نفسي، فوقعت بجانب السرير، سحب حزام البنطلون مرة ثانية، يريد أن يروضني هذا الوحش. لكنه لن يستطيع هذه المرة. انهال علي ضربًا، وإن يكن؟! لم أصمت. أخفيتُ وجهي بساعدي. وقلتُ له: سأظل شوكة في حلقك، ولن تأخذ مني حياتي.

بعد أن شعر أنه اكتفى. أمسك جمجمتي بقبضته الكبيرة. سحبني على الأرض، قبل بزوغ الفجر بقليل. كوّمني في زاوية الصالة. تركني

جثة هامدة، بالكاد أتحرك. ألقى بطبق بلاسيتكي فيه بعض الجبن، وقال لي باستهزاء. كلّ. تمنيت الموت، ليس من الألم، بل الإهانة. نعم تمنيت لو أموت في لحظتي تلك.

تمددت في زاويتي منكسراً. وذليلاً.

لست أنا من يفعل هذا بي، ليس آدميا من يمارس هذا التعذيب؟ أي أم أنجبت هذا الشيطان؟

لو أني أقوى على ذبحه، وسلخ جلده عن عظمه. أقسم أني سأقطعه وألقي بلحمه إلى الكلاب الشاردة، لو أني أستطيع أن أطعنه بسكين، أحرقه، أخنقه بيدي هاتين.

ماذا لو وضعت وسادة على وجهه أثناء نومه. نومه ثقيل أعرفه جيداً، لن يستيقظ. أسد فمه. أكتم أنفاسه الكريهة إلى الأبد، أريح البشرية من قذارة هذا النذل. صدقاني أنا من يعرفه جيداً. أعرف كل خباياه. كل صغيرة وكبيرة عنه، أسراره الوسخة، وعائلته الساقطة. أباه السكّير. إنه قذر ابن قذر. ولد من صلب الشيطان.

إنه قذر لدرجة لا تتوقعانها. لا يتوانَى عن فعل أي شيء ليكسب المزيد من السلطة، لينسى طفولته البائسة والذليلة.

أنا أعرفه. كان الجميع مخدوعين به. لكن ما لم أكن أعرفه أنا عن نفسي، أنه سادي؛ يهوى تعذيب الناس. لا توجد في قلبه ذرة رحمة.

فعل كل شيء، ولم يحاول قتلي، هل يعتقد أن في قتلي موت له؟ ما

هذه الورطة؟ صرت لا أطيق البقاء في شقتي. وإن تركت البيت، أعلن استسلامي له، أترك له كل شيء. لن يتبقى معي أثر من نفسي، وأهجر كل ما عشت وخططت لأجله؟! سيخدع الناس، لا أبالي بما سيؤول إليه حالي. همّي الناس، والدولة. ستنطلي عليهم حيله وألاعيبه. وأفقد واجبي الوطني. لن أبقى هنا. سيخون وطنه. والوطن أمانة عندي. هل أترك هذه الأمانة لهذا القذر؟!

زحفتُ بقوة. أمسكتُ بالبلاطات الواحدة تلو الأخرى، كأنها نتوءاتٍ بارزة. أخذت أتقلّب بجسدي لأصل بسرعة إلى غرفة النوم، تشبثت بالجدار. سحبت مفاتيح البيت بكل هدوء من جيب بنطلوني، ومشيت مترنحاً بمحاذاة الحائط، أحاول جاهداً أن أبلغ الباب الخارجي. تقودني خطواتي إلى نجاتي، التفتُّ إلى الوراء، ألقيت نظرة وداع على شقتي وذكرياتي، حياة كاملة عشتها في هذا البيت. وغادرت. سقطت على سلم العمارة؛ أُسند جسدي إلى الدربزين، وفتحت الباب المعدني الثقيل، وتنفست الصعداء).

نكران

بدا وكأن مرجي باشا قد هدأ. لم ترقه القصة كثيراً، لكنه عندما رأى تغيّر ملامح الوزير، وهو ينظر محدقاً في الفراغ كأنه يتحدث إلى رجل بينهم يراه هو وحده. اقشعّر بدنه، وزاد خوفه عندما لاحظ رعباً حقيقياً في وجه الوزير، وكيف فتح كفيه، وقربهما إلى بعضهما كأنه يتضرع بالدعاء، ونفرت شرايين رقبته، وارتجف كامل جسده، وتراقصت ركبتاه.

انتبه الباشا إلى النائب العام، لم يكن هو الآخر على حاله، ولم يكن مستهزئا، كما كان في أول الجلسة، متأملاً وجه الوزير، إلى أن لاحظ عيون الباشا ترقبه من بعيد، فتصنع الجديّة، وانتفض من سباته، ورفع سماعة الهاتف: «قهوة بسرعة»، وسرعان ما أدار رأسه إلى الموظف بجانبه: هل كتبت كل شيء؟ أومأ الموظف بهدوء، وأحنى رأسه إلى الورق مؤكداً أنه سجّل كل حرف من المحضر. عاد النائب العام بوجهه البشوش، وقال متمالكاً نفسه: «أرجوك تابع. تابع. ماذا، هل اختفى الرجل؟!».

نظر الوزير إليهما كمن استيقظ من نوم عميق، ردّ مستفهماً:

«عفواً؟!»، زاد ذلك من صدمة مرجي باشا، وفرد النائب العام ابتسامته المعتادة، وقال بشيء من الوجل: لقد قلت إنك غادرت بنايتك. إذن، ماذا جرى بعد ذلك؟

عاد الوزير إلى شروده، وأخذ يتذكر تلك اللحظات من سنوات مرت:

(كان الطريق معتمًا، حين ذاك، وفارغًا. برد الليل يقرص جسده بلا رحمة. راح يحكّ ذراعه وساقه ليشعل بعض الدفء. خرج هائمًا. لا أقارب يأوي إليهم، ولا أصدقاء يثق بهم. وحيدًا ليس معه «أوراق ثبوتية» تركها كلها مسرعاً، ليس معه نقود أو ملابس. والأصعب أنه كان عليه أن يختار حياة جديدة؛ تبدأ من الصفر. تختلف عن أخرى بناها بيديه ليصبح ناجحاً وصاحب نفوذ. بقي معه القليل من الأمل والعزيمة، وفكرة تقول إنه لن يسرق منه عقله وإرادته. وكان لابد أن يهرب بهما، فهو الأصل مهما يكن.

انفتح الشارع على مصراعيه حالكاً يعجن سواد الإسفلت بضباب الليل الداكن، يجعل من كل شيء كرة معتمة تتدحرج نحوه، تدوسه بدورانها الثقيل. مشى عدة خطوات لا يعرف أين يذهب حتى فرد الطريق نفسه أمامه، فارغاً من عيون الناس ترمق ضعفه. يقول: مرحباً بك في عالم الحرية، زلقًا لخطوته الأولى، يأخذه بعيدًا عن قيوده، إلى غربةٍ يجهلها. وفيها خلاصه.

تماوج الشارع، وطنّ بصمت مريب، وحشته المرعبة أغوته لأن يتقدم ويرمي بحاله في المجهول. رحل عن شقته. كمن يسلخ جلده عن جسده بخنجر، ليلبسه رجل آخر. يقتلع عينيه. يضعهما في محجريه. ينزع روحه ويدّسها في أنفه. خلعه هذا الأنا منه عنوة، كان شعوراً رهيبا بالنكران، لم يعشه قبل هذا اليوم أبداً. لم يخسر معركة في حياته حتى مع «العجوز»، ثأر لوالدته، وألقى به في دار العجزة، فيأتي من يعتبر نفسه هو ليستولي على مملكته، هكذا لقمة سائغة.

تضاربت مشاعره بين الغبطة والأسى. وترنحت في أزقة يجوبها لأول مرة، وسار بين العمارات الشاهقة، وفلل كئيبة تزنّرت بأسوار حجرية متعالية. مشى بمحاذاة الأرصفة، خلف الأشجار المقلمة تقف في صف أخضر مهيب كأنه طابور عسكري يرحب به في مراسم رئاسية، واجتاحت أنفه روائح الأوراق الندية، تخزه أطرافها كلما تدارى بها من شعاع خاطف لسيارة مسرعة، أو طيف يغذ الخطى خلفه، وخاف أن يكون المستنسخ في إثره ليعيده إلى جحيمه.

وصل إلى الطريق السريع جنوب المدينة، أدرك أنه صار بعيداً بما يكفي عن مخالبه، وأنه الآن حر. لن تطاله يداه. ليس أسيرًا عند «أنا الآخر» بعد اليوم. وحين تيقن من ذلك، بدأ يشعر بالإعياء، فقد زاغ بصره، وكاد يفقد وعيه، وهو يجاهد ليرى بائعًا متجولاً يدفع عربته، متدثرًا بمعطف طويل، يعتمر طاقيةً، ويغطى نصف وجهه بلفحة من الصوف. اقترب منه فرأى قسماته. له رائحة حديد صدئ. كهلٌ

غارت عيناه في حفرتين، ووضعتا اللمسات الأخيرة على هيئته البسيطة والمعدومة. لم يلحظ من هم مثله في حياته السابقة، كانوا كأعمدة المرور، وجدران البنايات. تحاشاها حين يجول بين الدكاكين.

رفع ذراعه مستغيثاً، وما أن اقترب، حتى ألقى بجسده قرب ساقيه، يردد كلمة واحدة: «جائع». في الحقيقة، لم يكن كذلك، لكن هذا ما تبادر إلى ذهنه متوسلاً كي ينال عطفه.

طوى الكهل صفحة من كتاب مدرسي. شقها بسرعة. ملأها بحبات فولٍ مسلوق، رشها بالملح. أمسك ذراعه، وفتح كفه بحنو. ناوله القُمع، وقال: «كُل». كان يتأمله بمقلتيه الصغيرتين الحانيتين، أزاح اللفحة عن ابتسامة رقيقة مطّت وجهه المتعب، وفردت تجاعيده لتغدو خطوطاً حفرها الزمن بمدية.

صعّد البائع خده إلى الأعلى فقلّص استدارة عينيه الدقيقتين، محاولاً مواساته: «أي وحش يفعل بك هذا؟»، رأى الكدمات على وجهه، والخدوش تملأ جسده. خلع الكهل معطفه، ووضعه على كتفيه، «هل تقدر أن تمشي؟»، سكت وهو يغب من الفول.

«لا عليك»، أجابه: «أضعك على العربة، وأدفعك إلى حيث تشاء. أين تسكن؟». راح الكهل يسأله ويسأله، ولم يجد مفرًّا من أن يرتجل قصته مع الحياة:

- ما اسمك؟

- أنا مرهق!

- هل تعرف أحداً؛ لأقلك إليه؟

دارى رأسه في حفنة الفول. التقط حباته، ووضعها في فمه. أراد أن يهرب من سؤاله. أن يأويه في بيته، فليس له أحد في المدينة.

"لو تتذكر أين تسكن"، قالها بصوت مشدود. فكر الدكتور: ماذا عساي أقول؟ التفت إليه، فرآه يجاهد في دفع العربة بقوته الناضبة؛ كشمعة تئن محتضرة من نسمات خفيفة، يميل بجسده إلى اليمن واليسار كي لا تجمح بحمولتها الثقيلة عن الطريق.

رغم كبر سنه، وحجمه الصغير، إلا أنه بدا قادرًا على دفعها، والدكتور جالس على مقدمتها مفضلاً أن يرتاح، ويفكر في حياته الجديدة. وكي يبدأ أول فصل من فصولها، يجب أن يستهل حديثاً مع هذا الرجل، علّه يصبح صديقاً يعينه في ظرفه الصعب.

نظر إلى الكهل، وقال بصوت خجول:

- يا عم.

توقف الرجل على الفور.

- ماذا؟ هل تذكرت أين تسكن؟

- كلا. أود أن أسألك عن اسمك.

- عزمي. اسمي عزمي.

- أرجوك أن تقبل امتناني يا شيخ عزمي. لن تمانع إن ناديتك هكذا؟

- لا عليك.

- أنت تكد وتتعب في العراء إلى هذا الوقت من الليل، وفي هذا البرد. أليس هذا أمر صعب على رجل في سنك؟

- لقمة العيش يا ولدي.

- هل أنت راضٍ عن حياتك الرثة؟ سامحني على سؤالي إن كان في غير محله. لكن الدولة تأخذ منا الضرائب، والفاسدون ينهبون كل شيء، ولا يتبقى لنا نحن المساكين سوى الفتات!

- صدقت. الفساد صار مثل الأنفلونزا؛ لا رادع له.

- نعم. لقد تجاوزوا كل حد.

- ليس هم فقط، بل كبيرهم أيضًا.لم يعد هناك من يجرؤ على الوقوف في وجه هذا الطاغية.

- من تقصد بالطاغية؟!

رمقه الكهل بنظرة خاطفة، استقرت في الناحية الأخرى من الشارع، وكأنه يتحاشى فضوله. عاود الدكتور السؤال:

- تقصد القائد؟

- ومن غيره، وزمرته الفاسدة. أتذكر حين استلم السلطة، كان

صادقاً ونزيهاً، ولكن حاشيته والمترفين، حولوا الدولة إلى إقطاعية تديرها عائلته، وبعض المحظيين.

- صحيح. المشكلة كلها في حاشيته. لقد وضعت إصبعك يا شيخ عزمي على الجرح. يبدو أنك مثقف، وهذا لا يظهر عليك. أقصد من الوهلة الأولى! ضحك الدكتور متجاوزاً لغته الجارحة.

وضحك الشيخ عزمي. وأمسك بكتاب تعليم القراءة الذي شقّ منه ورقة ليلف بها قبضة الفول، وقال: "من هكذا كتب يا ولدي. من هكذا كتب. لكن لو تتذكر أين تسكن!".

- سأخبرك لا تقلق. لكن هل تتكرم عليّ برشفة ماء.

تنهد، ومسح كفيه بساقيه، باحثاً حوله عن مكان الماء. مد ذراعه داخل العربة، حرّك أكياساً بداخلها، واستقام ممسكاً بزجاجة بلاستيكية منبعجة، لفّها بخرقة بالية من الكتّان.

نظر الدكتور مشمئزًّا إلى القنينة، لوهلة كاد يعنّفه: "ألا تعرف النظافة؟! فالفقر ليس عذرًا لتدفن نفسك في الأوساخ، رائحتك صدئة، وملابسك رثة. كلها عادات سيئة تنشر الأوبئة."، تمالك أعصابه بشق الأنفس. قوّس زبدية خاوية على وجهه، متصنعا ابتسامة جوفاء، وقال بأدب: "ألا توجد عندك زجاجة أخرى."؟ أمال الكهل رأسه إلى الأسفل، وأسدل جفنيه مطلقًا زفرة من أنفه. رفع رأسه مجدداً كأنه يهم بإلقاء عظة ما. "لا يا ولدي. هل تشرب أم أعيدها إلى مكانها؟".

قال الدكتور في عقله، صيدٌ سهل، فرصة لن تتوفر دائماً في هذا الزمن الصعب. أسعفته بديهته:

- لم أقصد يا عم. لكن لا أريدك أن تشرب من بعدي. من أجلك، صدقني، من أجلك.

- اشرب. اشرب. لا تقلق عليّ!

دلق الماء في فمه؛ بعيداً عن شفتيه. استرق نظرة. وناوله القنينة. "شكراً".

أسند كوعه فوق سطح العربة مضطجعاً، يهتز بحركتها البطيئة، ويتأمل الأحياء المهملة، ومساكن البسطاء، وسقوف الصفيح المتحررة من المسامير، تصفع قوائمها الإسمنتية محدثة طقطقة عالية، تؤكد كل ثانية أن الريح تود لو تقتلع المكان من جذوره. رفرفت أحبال الغسيل مع الزوابع. تشيّع المارين بخرق شاحبة، وأشباح تتراقص مع الهواء العابر.

لم يسبق أن جاء إلى هنا. كان يتفادى المرور في الشوارع الضيقة، لأنها تشعره بالاختناق، ولم يشأ يوماً أن يحتك بهؤلاء البشر، فمشاكلهم كثيرة، وأمراضهم أكثر. صاح بصوتٍ عالٍ "هل بيتك بعيد؟" لم يجبه الشيخ، فأعاد سؤاله بصوت أعلى. أجابه: لماذا تسأل؟

– لو تسمح لي بالمبيت عندك هذه الليلة، إلى أن أجد حلاً لمشكلتي.

عصفت الريح بقوة، وحملت صوتيهما بعيداً. صاح: وما مشكلتك؟

اشتدّ الهواء أكثر. صرخ الدكتور بأعلى صوته: لا أستطيع البوح بها. ولا أرغب في توريطك معي.

– ماذا تقصد؟

– بصراحة أنا في ورطة.

– ورطة؟! شد الشيخ عزمي على طاقيته الصوف كي لا تطير.

– لديك مطلق الحرية، أن تأخذني إلى بيتك، أو تتركني هنا في الشارع.

– ما هي الورطة؟ "حاول الشيخ عزمي أن يحافظ على توازن العربة والرجل مستلقٍ فوقها"

– لا أقدر أن أبوح بشيء. المسألة وطنية. أنا أدافع عن البلد ضد الفاسدين الذين يحاولون تدميره. يمكن أن تقول إني معارض سياسي. ورجال المخابرات يبحثون عني في كل مكان!

نظر الدكتور إليه بابتسامة ماكرة. تابع: "لا تخف. لن يعرفوا أني عندك. فمكان إقامتي بعيد جدًا، ولن يتوقعوا أن رجلاً مثلي يختبئ عند واحدٍ مثلك!".

أراده أن يشعر بالفخر لمساعدته تلك، قال الدكتور في مخيلته: "لن تأتيه الفرصة في عون من يقفون في وجه الطاغية كل يوم. المنبوذون في بلادنا ساخطون على النظام. وأي كلمة إساءة للرئيس قد تستفز فيهم نخوة أحتاجها بقوة.".

سكت الشيخ عزمي وضمر وجهه، ظهر وكأنه غير مقتنع بكلامه. أو ربما لم يبالِ!

كسرت صراصير الليل هدوءًا مباغتًا حلّ بعد أن خمدت الريح. سارا في القعر المعتم من المدينة. "إلى أين يمضي بي هذا الرجل؟!"

تهادت خطواته خلف العربة حين مرّ فوق أرض ترابية، وأخذت عجلاتها تضرس الحصى والرمل. أما الدكتور فلاذ بغفوة قصيرة مستبيحاً هذا الهودج الخشبي المكشوف، وكأنه صُنع لأجله في رحلة الخلاص من رجل السردين.

شعر بطمأنينة. كان دائماً يحتاجها مثل "الإسبرين"، شعور دافئ اقترضه من رجل طيب، أحسن معاملته إلى حين. خمَّن أنه يعرف جيداً هؤلاء الطيبين؛ يعطون بلا مقابل، ليسوا أغبياء، لكنهم يفتقدون إلى هدف في حياتهم. ورجل بلا هدف، هو تماماً، شخص اختار لنفسه أن يكون في خدمة الآخرين، فلماذا يترك خدماته تذهب سدى، أو يستغلها شخص لئيم في أغراضه الدنيئة؟!

***

استأذن مرجي باشا الجميع كي يدخل الحمام، وانتفض النائب العام من فوره ليجري مكالمة هاتفية، وظلّ الوزير ثابتاً، هو والموظف، كل على كرسيه. عاد مرجي باشا يرفع سحاب

بنطاله، بينما جلس النائب العام، يسأل: «قلت إنك رأيت هذا المدعو عزمي حسنا ماذا جرى بعد ذلك؟»

رد الوزير، مرخياً ذراعه على مسند الكرسي اللامع: (ساعدني الشيخ عزمي على المشي، حتى أوصلني إلى سقيفته، خمنت أنه رجل معدم من ملابسه الرثة، ولم أتصور أن بيته صغير ومتهالك إلى هذه الدرجة، لا توجد عنده غرفة واحدة إضافية، وكان علي أن أتشارك معه هذا الحيّز الضيق. حتى أجد حلاً لمشكلتي.

انتابني الضيق من السقف المنخفض، وعتمة المكان. لم يكن ذلك يكفيني، كي أجد سريره الحديدي مقوّساً للأسفل، لم يعرف الكهل أن الاستلقاء فوقه يضر بفقرات الظهر؟!).

في الزاوية المقابلة، نصب الشيخ عزمي قدرًا كبيرًا، يغطيه السخام فوق بابور نحاسي أصفر باهت. وفي الناحية المقابلة دولاب خشبي، لا أبواب له إلا واحدٌ يتأرجح معلقًا بمسمار.

كدّس الشيخ ملابسه، كيفما اتفق، في جوف الخزانة المعتم، بجانب مقتنياته البائسة. لفت نظره صورة لشاب عشريني في إطار خشبي رخيص الثمن فوق رأس السرير. استفهم بهزة خفيفة من رأسه؟ مسح الشيخ عزمي كفيه بفوطة ألقى بها على حافة الطنجرة الكبيرة، سكت

مليّاً قبل أن يجيب على استفساراته: «ولدك الذي يعيش في الغرب». هل يزورك؟ سأله.

بدا أن الشيخ عزمي يتحاشى الحديث عن ولده «لم أره منذ خمسة عشر عاماً أو أكثر، لم أعد أذكر، إنه في مثل سنك». «فترة طويلة!»، قال الدكتور ذلك متعجباً، وهو يتكئ على طرف السرير محاولاً الجلوس براحة أكبر. أطلق آهة واضحة؛ عبّر له فيها عن شعوره بالتعب والإرهاق. عله يرأف بحاله ويسمح له بالمبيت عنده، ليلة واحدة على الأقل!

شدّ شيء يلمع انتباه الدكتور. شيء قابع في الظلام، مركون على طاولة، قرب دولاب الملابس، نهض متحمساً. زهرية معشقة بخطوط ذهبية، رأى نسخة منها طبق الأصل في بيت العقيد فوزي. صدمته كانت كبيرة. «كيف لهذا البائس أن يقتني فازة ثمينة؟!»

عقد يديه خلف ظهره، وانحنى يتأملها مثل عالم آثار، وأشار بإبهامه. «هذه فارسية. أليس كذلك؟ إنها نوعٌ نادر، وباهظ الثمن. الزخارف في الشريط أسفل العنق تؤكد أنها فارسية، هذه عمرها أكثر من مائة عام، إن لم يكن أكثر. والشقوق أثرية، بلا شك!». رفع ذقنه إلى الشيخ عزمي وسأله، بحيرة: كيف حصلت عليها؟!

ابتسم الشيخ، متململاً: «كلا يا ولدي. هذا ما حصّلته بشق الأنفس، من بائع أحذية؛ عوضاً عن دَيْنٍ أخذه ورفض سداده!» أمسكها الدكتور بعناية، ونظر إليها. «هل تأذن؟!» «تفضل» جاوبه الشيخ عزمي، وأدار

رأسه منشغلاً بشيء ما.

قلّب الزهرية بين يديه، فرأى لاصقًا صغيرًا في قعرها كُتب عليه، بالإنجليزية «صنع في الصين»، شعر بالاشمئزاز. كيف لم يتبين أنها رخيصة. أعادها مكانها بصمت. وداري حرجه، ببضع خطوات منتظمة يتأمل فيها لوحة مائلة على الجدار لمركب شراعي يبحر في جو عاصف. عدّل وضعيتها، وقبل أن يهمّ بسؤال آخر. بادره الكهل: وهذه أيضا قايضتها بحفنة فول.

لم يحظ من الشيخ بردة فعل يستفيد منها بشيء. اضطجع، وتفحص البيت الصغير مرة أخرى. رأى باباً ضيقاً قاده إلى الحمام. دخله قبل أن ينام. الحفرة في منتصفه تكسوها طبقة رقيقة من الإسمنت الخشن. تساقطت قشرتها الخارجية. قرّب الشيخ منها إبريقاً أخضر، بجانب صنبور نحاسي يقطر خيطًا رفيعًا، تاركاً رقعة من الماء لا تجف على الأرضية القاتمة، والذباب والبعوض يغشون المكان.

انتصب الشيخ عزمي بصعوبة، وطقطق ظهره للخلف، سأل الدكتور بسأم ونعاس: «أين تحب أن تنام؟». على هذه الفرشة الي فردتها على الأرض، أم على السرير؟ فرك الدكتور شعره بأصابعه مفتعلاً حيرة ممزوجة بخجل. حرك وجه بعيداً. وقال: «أرجوك. تصرف وكأني غير موجود. الوضع مؤقت، تأكد من ذلك».

لم يكمل الدكتور عبارته، وإذا به يزحزح مؤخرته إلى الخلف، ويلقي بكامل جسده على السرير. فهم الشيخ حركته تلك. أطلق نظرة خاطفة

إلى الفرشة، وألحقها بأخرى نحو الدكتور، الذي شعر وكأن الشيخ يقيس قامته.

استدار الشيخ عزمي، وهو يقول: على الأغلب، أنت متعب لسبب لا أعرفه. ولا أريد أن أعرفه. نم على السرير اليوم، وغداً نجد حلاً بإذن الله.

رفع الدكتور ساقيه، ونفض قدميه فخلع نعليه بعيدًا لم يدر بحاله. نام في إغماضة واحدة. مثل السحر، شعر بسَكينةٍ تغمره، ترسم خطوطاً عشوائية من الومضات، كأنها ألعاب نارية صامتة ودقيقة تفرش ما في جعبتها باطن جفنيه. ترفّ فوق مقلتيه، وتخفت تدريجيا حتى غفا في عالم خفيف، لا جاذبية تشده للأسفل، طار في أحلام متقطعة، ومشاهد مبتورة. وجوه مجهولة وصور لا تترابط إلا حين يهلّ شخص يعرفه، ما أن يميّز أحدهم حتى يطل آخر. تفاصيل مبهمة تدغدغه، وترحل. ونبرات أصوات تعلو وتذوي وتتلاحق باضطراد، كأنه يسرّع أحداث فيلم سينمائي.

اختزل الحلم ساعات الليل في دقائق.

غرق في نوم عميق، وهو من ظنّ أنه سيظل هائماً طوال الليل يحوم المدينة من دون ملاذ يتقي به برد الشتاء. لكن جاءه الكهل من السماء.

أفاق مرعوبًا على هدير عالٍ. نهض فزعًا يلاحق صرخة أطلقها لتوه. يقلب في اللحاف، يبحث عن شيء يحبو في ثناياه. أصابه الهلع

من رائحة غريبة استقرت في أنفه. كان لها وقعٌ مختلف. وعى ما حوله. ميّز الشيخ عزمي من البارحة. يقرفص حدّ بابور الكاز، قرب طنجرة كبيرة ينبعث منها بخار كثيف ملأ الغرفة، أمسك بغربال يقذف به حبات الفول اليابس إلى الأعلى، ويتلقفها بإتقان دون أن تسقط منها حبة واحدة على الأرض.

«أحمَدُ الله أني كتمت غيظي قبل أن أصرخ في وجهه» قالها في سره. «ألا يستطيع أحد أن ينام قليلاً. البخار وصوت البابور؟!». تمنى أن يفجّر تلك الكلمات في الهواء لينفِّس عن غضبه.

دفن مقته المبعثر على وجهه، محاه ببشاشة متكلّفة، أخفاه وتمطى من نوم عميق. فرد جدعه على السرير مجدداً، وقال مازحًا: «ماذا لدينا على الفطور. فول. صح؟» وأنهى عبارته بضحكة. ليضفي جواً من المرح.

لم يضحك الشيخ. ولم يعره انتباهاً، ظل يعمل بجد، يقذف الفول، ويتلقاه بشبكته الكبيرة. يتوقف برهة، ينقب بين حباته عن حصى، أو عود خشبي، يتناوله ويلقي به بعيدًا. ولا ينظر إليه.

اغتسل ومسح كتفه ورقبته بفوطة بللها بالماء. وقف برهة يفكر في الخطوة التالية؟

خرج من الحمام، ووجد الشيخ عزمي حائمًا في الغرفة. وضع صينية معدنية عليها طبق من الفول، وبعض الجبن، ورغيفان. أدار ظهره، وفتح الباب وغادر، وقدر الفول الكبير يغلي، محاولاً قذف غطاء

الألمونيوم المنصوب فوقه؛ بانفجار الفقاقيع المتزاحمة على السطح.

غمّس بعض لقيمات، مسترخياً بهدير البابور. أحسّ بدفء الرذاذ يعَبّق المساحة الضيقة والمنكفئة. يلفح بشرته بسخونة فاترة. يتركها باردة ورطبة، ويعود متمايلاً كغيمة صغيرة ترقص مع صوت اللهب، وتنسحب متشظية بأنفاسه.

تأمَّل وجه الشاب العابس في الصورة فوق السرير، له حاجبان كثان، وشفتان غليظتان، وأنفه يعتلي وجهه بفوقية. يبدو أن الشيخ عزمي لا يملك من الدنيا سوى قسمات ثابتة لا يغيرها الزمن لابنه المسافر. خمس عشرة سنة. الولد صار رجلاً ناضجاً الآن. الدنيا مليئة بالبؤساء. يربطون حياتهم بآخرين. ويدورون مثل عقارب الساعة في دائرة لا تنتهي من الوقت. يتغير كل شيء، وتظل عقاربهم تدور.

«أفِقْ»، قال في عقله مؤنّبًا. «لست أنا من يستسلم. ولست ذاك الشيخ. بدأت معركتي الآن. وسيكون هذا بيتي الجديد بداية لتحقيق هدفي.»

عاد إلى السرير، لفّ اللحاف حول جسده. عاود النوم مستأنسًا بترنيمة البابور تحت صفيح القدر الساخن. سَهى؛ يبحث عن طريقة يدفع بها الشيخ عزمي إلى الكلام. كان يجب أن يعرف عنه كل شيء، وفي ذهنه بوادر خطة جهنمية رسمها لـ «رجل السردين».

إعلان الردة

استرخى الوزير قليلاً، وهو يرصد اهتمام النائب العام والباشا بتفاصيل حكايته. أسعده أن يأسرهما بكلامه عن أمر عايشه دقيقة بدقيقة، وحيداً. ولم يجد من يبوح له بسره. أحزنه يوماً أن لن يصدقه أحد، مهما أغلظ من أيمان، أو جلب من براهين.

برم غطاء زجاجة الماء على مهل، دلقها في حلقه الجاف، وتناول فنجان القهوة البارد، رشف القليل وهو يسترق نظرات مستعطفة إلى الاثنين. قال بشيء من الزهو: «لن تصدقاني أبداً. كنت أبيع الفول. نعم. أنا بعت الفول يوما!».أتبع كلماته بابتسامة شاركه فيها النائب العام، كما يفعل دائماً، وتنحنح مرجي باشا محاولاً أن يفسح لجسده الضخم مكاناً على الكرسي الضيق.

أحسّ الوزير بحرية في الحديث، وقف محركاً ساقيه، وتمشى خطوات قليلة في طول الغرفة وعرضها. أعطى ظهره للرجال من خلفه، واسترجع كامل هيبته، وتابع كمن يحاضر في جامعة، درساً سرده مئات المرات. نصاً يحفظه عن ظهر قلب.

ولا يحتاج لأن يقلب الكتاب كي يعثر على صفحة الدرس، أو يرسم شكلاً هندسيا على لوحة العرض. كانت أصابعه تدور في الهواء، وعيون الحاضرين تدور معها.

أخذ يتحدث بنبرة عالية، ومرحة، فيما تابع الموظف الهادئ تدوين أقواله: «في صبيحة يوم جديد، قمت من النوم كعادتي في بؤس لا يطاق، وجدت بقايا فول في الطبق، وبعض الزيتون. أكل الكهل، وترك لي فضلاته. فهمت الإشارة. غادر الشيخ عزمي إلى عمله في رحلة، تستغرق يومه كله. ولم يكن في بالي رغبة بالرحيل من تلك السقيفة، إلى أين أرحل؟!».

اقترب الوزير الدكتور من النافذة، وهو يروي التفاصيل بصوت جهوري تتعالى نبرته كي يضمن أن يصل إلى طرف الغرفة، حيث مرجي باشا والنائب العام هناك يتابعانه بتمعن.

استرق نظرة إلى الشارع، لم ير مظاهرة حاشدة تطالب بإنهاء «مهزلة» التحقيق معه كما تمنى، أو حتى السائقين الذين تحدّث عنهم النائب العام. فقط عسكري يرخي بندقيته إلى الأسفل قرب كابينة الحراسة، يقف هناك، ويراقب المارة في الشارع لا أكثر. عاود الحديث عن تلك الفترة الدقيقة من حياته:

(كان قد مضى يومان، وهو مستلقٍ على السرير، يستيقظ ليأكل الفول

والجبن، وينام. كل ساعة تمر ضاعفت حيرة الشيخ عزمي وزادت من غيظه، لاحظ أن الشيخ سينفجر في وجهه، ويطرده خارجًا لا محالة. خرج لأول مرة منذ جاء إلى السقيفة. الشمس تنثر خرزها الأصفر متلألئًا في السماء الباردة، تشعّ بين سحابات بيضاء ناصعة قذفتها الريح عاليًا لتسبح في الفضاء المفتوح بحرية، هامت السحب ببطء ملقية ظلالها بقعًا داكنة على أرض جرداء شاسعة، سقطت من خاصرة الأحياء الجنوبية الفقيرة، وتدحرجت عارية إلى تخوم حرش أشجارٍ سدّ المدى الفسيح للعراء وراء السقيفة. خطاً مستبيحاً هذا الفناء الواسع.

الشيخ عزمي يعيش خارج جغرافيا المدنية، وحيداً مع صورة ابنه.

تهاوى المشهد أمامه في خواءٍ يطوق الأرجاء، مسننًا بأشجار السرو إلى مبانٍ رمادية، تجاورت بعشوائية البحث عن مكان رخيص في الفناء الخلفي للعاصمة. أطلّت المباني السكنية المتراصّة كتلة جماد صماء، تدلى منها خط أسود رفيع؛ شارع معبد يزحف إلى الساحة وقد تلاشى طرفه، وفقد سواده في تعرجات ترابية صنعتها آثار عجلات العربة، حيث يُقبِل الشيخ كل يوم بعد رحلة مضنية يقضي جلّ وقته يبيع بضاعته الساخنة للهائمين، والعشّاق، ومن يشتهي إسكات جوعه بقرطاس من الفول الحامض.

جاء به الشيخ إلى مراده، هدوء وانزواء لا مثيل لهما، يعيش منفياً ووحيداً في أقصى المدينة، لا يزوره أحد، ولا يجاوره أحد، وهذا ما أراده الدكتور!

تساءل في عقله عن الكيفية التي يقنعه بها كي يتمكن من قضاء فترة كافية في الركن المجهول بعيدًا عن الأعين؟! وقبل ذلك يجب أن يعرف خباياه، فلدى الشيخ عزمي سر يدفنه في عزلته.

بحثَ في خزانة الشيخ عن خيط يقوده إلى مفاتيح حياته الغامضة. لفت انتباهه صندوق معدني كبير، استخدمه الكهل كطاولة وضع عليها الزهرية الفارسية المزيفة، عثر فيه على قطع معدنية، وبراغي، وحقيبة جلدية مهترئة.

لا شيء سوى أوراقاً ثبوتية. وبورتريه بالأبيض والأسود لامرأة عشرينية، وجهها الشاحب، ومنديل الرأس، يدللان على أنها ماتت منذ زمن. وصورة أخرى، له يلبس فيها ربطة عنق معوّجة، لا تتلاءم مع قميصه المقلم، بجانبه طفل صغير. مهلاً: «هذه شهادة جامعية باسمه، يحمل إجازة في الآداب، وورقة تثبت أنه عمل في إحدى المدارس الإعدادية». صحف قديمة، وكتاب عن «الإمبريالية الأمريكية». «شيوعي!! انكشف أمرك يا محتال. أخيرًا عرفت سرك الخطير، « قال الدكتور لحاله. «أدرك أن هاتين العينين الغائرتين تخبئان خلفهما رجلاً مشبوهاً، وليس بائع فول بسيط كما يدّعي». أوراق وأوراق. التقط صفحات لمقالة طويلة كتبها الكهل بخط اليد، عنونها بعبارة: «الإذعان لإعلان الردة» كان واضحاً أنها تستهدف النظام.

قرأ فقرات قليلة كتب فيها:

(إن تراكم الكبت يرسّب مادة ناسفة في أحشاء الأحياء المقهورة؛

أو بمعنى آخر: «بارود الثورة البارد»، كل ذلك يتراكم في انتظار شرارة تولّد هذا الانفجار، رهناً باستنفاد النظام كل وسائل القمع، الذي يحشو في كل يوم من عمره، الملح الأسود في فوهة البندقية العتيقة.

وتتراخى الأجهزة الأمنية، بعد أن يقضي النظام على خصومه جميعاً، وتعدم أدواته المرعبة مفعولها مع التقادم، ويتعود المقهورون على روتين أمني واحد لا يتغير، يفقد قدرته على الابتكار. والأهم، حين يستلذ الشعب شعوره بالألم، وتكون لحظة النهوض مباغتة لنظام بات يعيش في دعة، واستسهل البقاء فوق شعب خانع لا يوحي بالاستنفار. في لحظة النهوض، سوف يستخدم النظام آخر أدواته المستفزّة، ويضغط على الزناد دون أن يدرك أن الرصاصة التي لقمّها بيده في بيت النار من زمن طويل، قد ترتد إلى الوراء، لأن بندقيته المركونة أصابها الصدأ والعطب.

والمفارقة، أن النظام لم يعرف بعد أن أدواته باتت مستهلكة، وعقيدته الرائجة كسدت. وأن الديمقراطية هي الحتمية التاريخية، ووسيلة الحكم الجديدة. حيث لا تجبرنا الأنظمة على فعل ما تريده، بل تترك لنا الحرية لنفعل ما تريده أيضاً!».

لم يفهم أهو مع النظام أم ضده؟ ولم يعرف هل الديمقراطية جيدة أم سيئة في نظره.

دفعته غريزته البوليسية إلى التنقيب أكثر، أعاد تشغيل دماغه المعطّل. أخيراً أصبح لديه مهمة يقوم بها، وعادت حماسته المعهودة

لجمع المعلومات «آخ. إنه صيد ثمين، أستطيع أن أسترد به مكاني في الجهاز، وقد أحصل على ترقية. لكن ماذا أفعل برجل السردين؟!، كما أن الشيخ، رجل نكرة، لا أحد يعرفه. نعم قد يعتقلونه لسلوكه المارق، لكن قد يعتقلونني أنا معه!!».

قلب الفراش والسرير. الأرض. الجدران. خلف القدر الكبير، في داخله بين بقايا حبات الفول الملتصقة بقعره. بابور الكاز. لم يترك شبراً لم يبحث فيه. كان الوقت يداهمه، ويجب أن يعثر على المزيد من الأدلة. أدلة يفهمها.

نبش سقيفته رأساً على عقب. توقف عن البحث في الداخل. «ماذا عن خارجها؟ الرجل يسكن في مكان معزول، لا شيء يمنعه من إخفاء ما يشاء في محيطها». طاف بالبناء الصغير. لا يمكنه أن يحفر كل شبر بحثا عن شيء لا يعرفه. يجب أن تكون هناك علامة ما.

رأى قطعتين من الطوب ملاصقتين للحائط الخلفي. «لماذا يضعهما الشيخ عزمي هكذا. أهو كرسي يجلس عليه ساعة يستبد به السأم، لكن لديه كرسيه في الغرفة؟!».

عاد إلى الداخل، وأحضر الكرسي، ثبته فوق الحجرين الإسمنتيين. صعد فوقهما. لم يقدر على بلوغ سطح السقيفة. «مهلاً. النافذة!» حركّ القطعتين بضعة أمتار، وثبتهما أسفل الشباك، صعد بالطريقة نفسها، ورفع ساقيه، تشبث بحواف النافذة حتى بلغ طرف السقف، اندفع إلى الأعلى، وأسند قدميه إلى شِباك حديدية تشبه السلم. علق حذاءه بين

قضبانها فتركه، وخلع الآخر، وثبت جسده بالسور المنخفض للعليّة.

وضع الشيخ عزمي خزاناً للماء على السطح، وكراتين، وأدوات قديمة عديمة النفع. فتح الخزان وأقحم رأسه في رطوبته، أمعن النظر في المياه المهتزة بأمواج صغيرة تدافعت حين فتح غطاءه الصغير. ورأى مكعباً بلاستيكياً أسوداً كبيراً يطفو فوق سطح الماء. خلع قميصه، ومدّ ذراعه وسحبه.

كسر الصندوق، ووجد في داخله أكياساً بلاستيكية، نزعها فعثر فيها على أوراق ووصولات مصرفية. فتح ما تبقى، رزم كثيرة من المال غلّفها الشيخ جيداً كي لا يَلِجَها الماء، المبلغ كان كبيراً، لم يعرف؛ أهيّ تحويشته من بيع الفول، أو أنها أموال الحوالات المصرفية من ابنه المغترب.

كوّم المبلغ بين ساقيه، تأمل ثروة هبطت عليه من السماء. «الرجل يحتفظ بمدخراته فوق سطح بيته! لا يصرف المال، بل يبقيه فوق، ويذهب كل فجر لبيع الفول. أي مجنون هذا؟!».

أراد أن يعيد كل شيء إلى مكانه، لكنه أفسد الأكياس، وأتلف الصندوق، ولم يعد لديه وقت، فقد دنا موعد عودة الشيخ. «ماذا لو اكتشف أمري؟ كيف أتصرف؟» وضع الرزم في الصندوق المعطوب، وتركه على السطح ليعود إليه لاحقاً. أرخى جسده بسرعة نازلاً إلى الأسفل.

أعاد الكرسي إلى الداخل. تساءل في خاطره: «ربما يُفتضح أمري إن

لم أتصرف بحكمة، ولن أعرف ماذا سيحدث بعد ذلك، وأفقد ملاذي الوحيد، ولن يكون بمقدوري تدبير خطة محكمة أبعد فيها من يقبع في شقتي، ويستولي على حياتي».

سمع الدكتور صوت دوران عربة الشيخ عزمي فوق الحصى. اقترب الشيخ بعدته مثل كل ليلة. أنصت جيداً فيما العربة تتدحرج بسرعة هذه المرة. خطف الدكتور نظرة من النافذة ورأى الشيخ يقف في سحابة سوداء من الليل. بعيدًا يتفحص بيته، وكأنه يتأمله لأول مرة. «ماذا يفعل؟!»، تذكر أنه نسي حذائه بين ثنايا النافذة. اقترب الشيخ بهدوء، وسرعان ما ترك العربة خلفه وبدأ يركض.

«انهض»، سحب الغطاء من فوق الدكتور الذي تظاهر بالنوم، تلفت حوله، حدّب ظهره، وفرج بين ذراعيه ممسكا بسكين لم يعرف الدكتور من أين انتشلها.

دخل الحمام، وعاد بعينيه الغائرتين تعكسان نور السقيفة الطفيف. أمسك السكين بيده المرتعشة. اقترب منه. «ماذا كنت تفعل؟ ماذا كنت تفعل في غيابي؟». «لا شيء» أجابه متحاشيا نصل السكين، وأبعد وجهه عن رأسها المدبب.

ترك الشيخ عزمي الغرفة. حمل الكرسي الخشبي، وأخذه إلى الخارج. «ماذا عساي أفعل»، قال الدكتور في عقله. سمعه يصعد إلى فوق. يفتح الخزان.

ذهب الدكتور في إثره فوجده يهبط متشبثًا بالنافذة. ولم يدر ما جرى له. شيء ما ألهمه أن يقبض على ساق الشيخ، ويسحبه بقوة. سقط الكهل على ظهره يتلوى. وصاح الدكتور: (أنا آسف. لم أقصد). تقلب الشيخ محاولاً أن يصل إلى السكين. لكن الدكتور عاجله، وأمسك بها ووضعها تحت حزامه. توجه إلى الداخل وعاد يحمل معولاً وحبلاً.

حاول الدكتور أن يمنع الشيخ من الهرب، لوح بالسكين في وجهه، وقال: تريد أن تقتلني أيها البائس؟

رفع الشيخ رأسه؛ بانكسار. انتفخت رئتا الدكتور عن آخرهما، وصار عاجزاً عن طرد الهواء من صدره، أصبحتا كرة هواء تجاهدان للخروج من جسده، فشعر باختناق، وأن أنامله تشد بقوة على مقبض السكين.

حدّق الشيخ عزمي بالرجل. استجمع كلمات من جوفه الموجوع، وقالها بصعوبة: ارتبت منك لحظة ساعدتك. عرفت أنك ابن حرام. غلطتي أني أدخلتك بيتي. دار الدكتور حوله، ولم يعلق. كانا وحدهما في هذا الليل البهيم.

استطرد الشيخ عزمي: عرفت أنك صعدت إلى فوق، عندما تركت حذاءك يعلق في النافذة. كانت مسألة وقت قبل أن تسرقني. تريد المال. خذه وانصرف. لا أريده.

«ماذا لو سرقت ماله فعلاً وتركته يبلغ عني، سيعطيهم أوصافي

ولربما اعتقلوا المستنسخ عوضاً عني، سأضرب عصفورين بحجر واحد. لا لا.» لم يستحسن هذه الفكرة. ولم تكن تكفي للإيقاع برجل السردين، قال لحاله: «من سيصدق هذا المسن، ويكذب المستنسخ بكل علاقاته ومكره».

أوثقه بالسرير. وجلس فوق رأسه يقلب فكرة ما. ردد بصوت خفيض: «يا شيخ تجبرني على أذيتك. ليس من طبعي الغدر، صحيح أنك استضفتني في بيتك. لكن يجب أن تدرك أنك ستكون شهيد مهمة جليلة أخدم بها وطني، وأن عليك أن تضحي من أجله أنت أيضًا. وتكفّر عن آثامك في حق هذا البلد. لا تستطيع أن تنفي أنك تآمرت على أهلك ومجتمعك. خائن، وعقوبة الخائن هي الإعدام».

شدّ الدكتور على السكين، لا يزال ذلك الهواء ينفخ صدره من دون أن يقوى على زفره خارجاً. رفع ذراعه وهوى بها على رقبته. لم يتمكن من نحره، جرحه وأخذت الدماء تتدفق خارجاً.

ترك السقيفة وتوجه إلى العراء. حاول أن يجد طريقة يبقي بها على حياته، لكن كل المخارج كانت تؤدي إلى نتيجة واحدة.

«موته راحة له من عذابه. صدقاني»، قال الوزير، وسط ذهول مرجي باشا والنائب العام. «يصحو كل يوم مع الفجر ليشتري الفول نيئاً، ويعود بعد منتصف الليل ليسلقه، وفي

العصر يجول المدينة يبيعه نابتاً للعشّاق. كم ساعة ينام هذا الرجل؟! إنه عذاب يومي. ابنه العاق في الغربة يجمع المال، ويترك والده وحيداً معزولاً لا يسأل عنه أحد. يرسل له كل شهر مبلغاً من المال. هل يعتقد أنه يسعده بالنقود؟! الآباء يحتاجون إلى ما هو أكثر من ذلك. صحيح أنا لست أباً، لكني أقدر ذلك».

نظر الوزير بوقاحة إلى الرجلين وقد تبدلت ملامحه لتصبح أكثر قسوة، لم يكن هو نفسه الرجل اللطيف الذي دخل من باب غرفة النائب العام قبل ساعتين. تلاحقت الكلمات سريعة تخرج من حلقه: «ما هو دور الشيخ عزمي في بناء المجتمع؟!»، قولا لي بالله عليكما. « يمكن للناس أن تستغني عن الفول المسلوق، وسيأتي ألف شيخ عزمي لبيع الفول في وسط البلد. يسمونه «تسالي» لا خلاف. حسمت أمري، لا أعتقد أن الشوارع التي يحرثها بعجلات عربته سوف تفتقده. طيف يعبر كل يوم فوق الأرصفة، ظل لن تلاحظه حشود المارة. لا أخفي عليكما، لقد حزنت حين فكرت فيه بهذه الطريقة!

(جلبت معولاً احتفظ به الشيخ في إحدى زوايا الغرفة، فككت وثاقه. وخزته برأس السكين كي يمشي، وأمرته أن يحفر الأرض. ظل يدقها بالمعول، ويرفع التراب خارجاً بيديه الملوثتين بدمه. ولما شعرت

أن الحيّز أصبح كافياً، رفسته بقدمي فسقط أرضاً. أمسكته من كتفيه. لم يقو على مقاومتي. بعد ساعتين من الأشغال الشاقة، صار خرقة بالية، تسهل السيطرة عليه.

ثبّت رأسه بذراعي فوق التراب والحجارة. قلت له: «اسمع يا شيخ عزمي. صدقني هذا لمصلحتك» أجهش ببكاء مكتوم كشف ضعفه. كفكفت دمعه وربت على كتفه. «لا عليك لا عليك. لن تشعر بشيء، تجلّد يا رجل» انتصبت فوقه مباشرة، وأخذت أردم التراب، فيغطيه. كلما قاوم أبعدته بقدمي، وأعدته مكانه.

استنزف طاقته كلها في محاولاته اليائسة للخروج من جوف الحفرة، وقطّر دمه كله في جرحه النازف. أخذت أركله وأهيل عليه التراب. كان ممدداً ينفض الرمل عن وجهه ويسعل. ظل هكذا ربما ساعة أو أكثر، قبل أن أضع ما يكفي فوقه ليكف عن الحركة. وبعد أن انتهيت، سكبت فوق كومة التراب ما يكفي من الماء، أفرغت نصف الخزان، لأرص الطين، ويجف فيصبح صلباً، فلا يترك متنفساً للهواء. أردت له ميتة سريعة. كنت رؤوفاً به، إنه بمقام أبي، يكاد يكون في عمره

وضعت بعض الصخور فوق قبره وتربعت عليه فترة من الزمن؛ كي أتأكد أنه لفظ أنفاسه الأخيرة. تنهدت أخيراً بارتياح. زفرتُ حملاً ثقيلاً من الهواء حبسته في رئتي لساعة. طأطأتُ رأسي بخشوع، وقلت بشيء من الوقار «رحمة الله عليك». كنت شيخًا كريماً يا عزمي. أشهد أنك كفّرت عن ذنبك. إلى جنة الخلد إن شاء الله.).

المؤامرة

فرك مرجي باشا كفه بساقه، وردد بتوتر. «كلام فارغ!» أتبع جملته بتكشيرة مخيفة على وجهه المتجهم. «عرفت أنك وصولي، ولم يكن لدي مشكلة في ذلك. هذا يفي بالغرض، السياسة ترزح بالوصوليين. لكن أن تكون مجنوناً أو مجرماً لا رحمة في قلبك! هذه كارثة.» استدار نحو النائب العام مستجدياً منه ما يؤكد كلامه.

«لا حيلة لديّ» قال النائب العام عبارته، وهمّ برفع سماعة الهاتف. قاطعه الوزير. «ماذا تقصد سعادتك؟!»، زمّ النائب العام شفتيه: «لقد اعترفت لتوك بجريمة قتل!»، كنا نتحدث عن تهمة انتحال شخصية رجل بارز، والآن نحن أمام جريمة حقيقية.».

فغر الوزير فاه، قبل أن تحتويه نوبة عصبية مجنونة. أخذ يصرخ. «لم أكمل أقوالي بعد. يجب أن تعرفا بقية القصة قبل أن تحكما عليّ «، سكت ينقب في ذاكرته عن أمر يهددهما به، «لدي الكثير من الأسرار، وإن أفشيتها للإعلام. صدقاني سوف أهدم المعبد على من فيه، لن يهنأ الباشا والحزب أبداً».

«الوقت تأخر الآن». علقّ النائب العام. أقفل الموظف دفتر التحقيق، ووقف مرجي باشا مغادراً، دون أن يلقي التحية على أحد. نظر الوزير: «ماذا الآن»، أجابه النائب العام: «تعال غداً لنستكمل التحقيق. الموضوع ازداد تعقيداً».

رحل الوزير. ركب سيارة الموكب، وطلب من السائق أن يقله إلى مقر إقامته. تحسس جلد المقعد الفاخر، وتنشّق عطر السيارة، ومسح بكفه على بطانتها المخملية، وتناول زجاجة ماء معدنية منتصبة على الرف بجانبه، أعادها مكانها، واضطجع متأملاً شوارع المدينة.

الزجاج الأسود يشف عن صورة رمادية للناس والأشياء. فكّر أن يسافر. يهرب من ورطة وضعه فيها المستنسخ، سيّان. ثمة من يحاول أن يخلط بينه وبين رجل يشبهه بالفعل، رآه وتحدّث إليه، من لحم ودم. «هل يعقل أن يكون «البديل» هو من دبّر لي هذه المكيدة، بعد أن استقامت لي الدنيا، وأصبحت عضواً في الحزب الحاكم، ووزيراً نافذاً آمر وأنهى؟! «.

تذكر المؤامرة التي نسجها بتؤدة ليوقع برجل السردين بعد أن استولى على بيته وهويته وحياته كلها.

(بعد أن أجهز على الشيخ عزمي، ذهب الدكتور متخفياً إلى وسط المدينة. اشترى الفول النيئ من سوق العطارين. حمل الكيس الثقيل على كتفيه، مثل عمال التراحيل. رجع إلى سقيفته في الفناء القصيّ. سلق بضاعته على نار هادئة.

عايش حياة بائسة كحياة الفقراء، ولم تكن لديه مشكلة. فلديه المال الكافي ليعود إلى سابق عهده، وآمن بأن أمراً عظيماً سيصنع مستقبله، وأنه عصاميٌّ. يبني حاله من قعر الحياة القاسية. ظلّ يمني نفسه بحقيقة أنه ليس الآخر. نقي كماء الذهب، وليس صورة زائفة لنفسه.

المسألة لن تطول، لديه المال ليعيش حياة مختلفة، ويحقق غرضه في الانتقام من الآخر. ما تطلبه الأمر، هو الوقت فقط. فضّل الابتعاد فترة كافية لينساه المستنسخ. الزمن كفيل بذلك. يومًا بعد يوم سيتخلى رجل السردين عن حذره. والأهم، أنه بائع متجول، عنده رخصة الحركة ليراقبه متخفياً من بعيد دون أن ينتبه إلى وجوده.

ورغم حماسته لتحقيق هدفه. كان متمهلاً وحذرًا. باع الفول، وصار محترفاً في صنعته الجديدة. الشيء الوحيد الذي أقلقه كان ابن الشيخ عزمي، خاف أن يرد البنك إليه الحوالات المالية، فيشك في الأمر، أو يقرر المجيء على حين غرة للاطمئنان على والده.

مرت أشهر وهو يجوب الأحياء قريباً من منطقة سكنه القديمة. اعتمر طاقية صوف تغطي شعره، ووضع نظارة شمسية رخيصة. يذهب كل يوم قريباً من حارته، أطلق لحيته كي لا يميزه أحد. قضى

جلّ وقته في الشارع الخلفي للبناية التي سكنها يوماً. طاف بها كثيراً، ولم ير رجل السردين ولو مرة واحدة.

سأل الحيّ عنه على استحياء. لم يعد للمستنسخ وجود. هل انشقت الأرض وبلعته؟ أم اختفى هكذا بكل بساطة، كما جاء من العدم بدون مقدمات؟!

انتظر جاره فضل لحين خروجه، رآه يهم بركوب سيارته. دنا منه متردداً كما يفعل المتسولون، «فضل كان يحسب لي ألف حساب، واليوم لا أتجرأ على الاقتراب منه». تحدّث في عقله.

أرخى الطاقية لتداري جبهته، وغيّر نبرة صوته: «لو تتعطف عليّ سيدي.»، قال مخاطباً فضل. «ماذا تريد؟» لم يكلف فضل نفسه عناء النظر إليه. كان منشغلاً في تقليب إبرة الراديو.

أدار مفتاح السيارة، طرق الدكتور الزجاج بطرف إصبعه عدة مرات. وواصل إلحاحه. فتح فضل فسحة صغيرة ليسمع حاجته. أخبره «أنه ابن عم رجل السردين»، لم يكتشف حقيقة صوته، ولم يكلف نفسه عناء التحقق من كلامه، رآه لكنه لم يهتم لشأنه.

قال الدكتور المتخفي تفاصيل صحيحة، أموراً كان يعرفها فضل جيداً في سابق معرفتهما في البناية، عن أقاربه، وقريته. صدّق فضل الرسالة، زعم أن «عم رجل السردين قد توفي»، وأنه يجب أن يرجع معه إلى القرية، لتقديم واجب العزاء، وقسمة الأرض. طلب عنوانه

الجديد.

لم يتردد فضل في ذلك، أعطاه إياه، وأمره أن يوصل سلامه إلى نفسه! قال فضل: «قل له نسيتنا يا كبير.» لم يفهم الدكتور ماذا يقصد. عرف منه أن رجل السردين قد رحل إلى منطقة فاخرة، اشترى فيلا غربي العاصمة. أنهى فضل حديثه بعبارة «اوعدنا يا الله.» ورحل. اختفى عن ناظره.

فكّر: «صار شخصاً مهما هذا المستنسخ! أقصد صرت شخصاً مهماً. ماذا فعل هذا الرجل باسمي وهويتي في غيابي كي يصير شيئاً أهم مني؟»، دفع العربة إلى حيث يقيم رجل السردين. وما أن وصل حتى اقتربت سيارة ترجّل منها أربعيني ضخم، بوجه عبوس وقاسي الملامح. نهره وأمره بأن يغادر حالاً، وإلا صادر عربته، ورمى به في الحجز.

رحل الدكتور في هدوء،لم يجادل. استرق نظرة خاطفة إلى منزل مقبب بهرم قرميدي أحمر كبير، يحيطه جدارٌ متوجٌ بأوراق كثة، أضفتْ أغصانه المهذبة هيبة وأناقة. كمن وضع قطعاً مكعبة فوق السور، بدت أخشاباً مطليّة باللون الأخضر.

تأمل شجرة العلّيق تتسيد قمة الجدار، وقد فاضت عن طرف الباب الحديدي الشاهق. ورسمت ظلاً موازياً ركنت إليه القطط السمان في حيّ لا يقطنه إلا الأثرياء وأصحاب النفوذ. كره الشجرة المتسلقة لأنها حجبت باطن القصر عن ناظره، ولأنه لم يستطع أن يلوذ بفيئها ولو

دقيقة فقط، ليتقي بها تسلّط الشمس. مشى قريباً يضع ثقله وراء العربة صعوداً، خطواته كانت بطيئة، وسيارة الأربعيني تسير خلفه ليتأكد أنه رحل أخيراً عن المكان. «الأكيد أنه كان يعمل حارساً للفيلا التي يقطنها المستنسخ.»، قال في مخيلته.

كما قال جاره فضل. صار رجل السردين مهماً، وهو لا يدري!

عاد إلى سقيفته البائسة. جلس على الكرسي الخشبي، قبالة القدر المتفحم، والبابور النحاسي الباهت، يقلب الفول بمغرفة كبيرة. يرثي حاله. يسلق الفول قابعاً في بيت يغطيه السخام. والآخر يعيش على صيته، «يقتات مثل قارض على فتات ما ترك، واليوم يعيش في قصر يحرسه الأمن، وأنا لا حول لي ولا قوة.».

أدرك أن لا حاجة له بعد اليوم إلى هذه العربة. سأل عن شقة للإيجار في الحي الغربي، كل شيء سهل وممكن طالما كان بحوزته المال الكافي. أقام في السقيفة فترة قبل أن ينتقل إلى شقته الجديدة، قضى الأيام يرصد تحركات المستنسخ، وتفرّغ لمهمته الجديدة.

شاهد رجل السردين لأول مرة منذ تركه، مهيباً في المقعد الخلفي لسيارة لم ير مثلها من قبل. تنطلق بسرعة وتتبعها أخرى.

تنكر في ملابس أنيقة، هذّب لحيته، تعرّف على جيران المستنسخ، تبادل معهم أحاديث مطوّلة تدله على تفاصيل صغيرة عن حياة نفسه الجديدة، لم يدل الجيران بالكثير عن ذلك الرجل الغامض. كان كتوماً،

ولم يكن اجتماعياً بما يكفي حتى مع الأثرياء منهم. مخيف، سيرته تثير الذعر لمن حوله من المدلّلين.

تقرّب بحذر من حرّاس الفيلا، يغدق عليهم بعلب السجائر غالية الثمن، لاحظوا شبهاً يربطه برجل السردين. وسألوه إن كانت علاقة قرابة تجمعهما، أنكر في الحال، إلا أنه أدرك لاحقاً أن الشبه كان وسيلة جيدة لاكتساب احترامهم وثقتهم. تركت نفسه الجامعة. وشغلت منصباً قيادياً في الدائرة الحاكمة في ذلك الوقت. وحصل على رتبة عالية في الجهاز.

«حان الوقت للإيقاع بها.»

سهر ليالي بطولها يدرس كل ما كتب المحللون عن ظلم الحكومة، والفساد في الدائرة الضيقة والمتنفذة. اشترى الصحف، قصّ مقالات اختارها بعناية، وطبع نصوصاً أخرى من مواقع إليكترونية، وكتب على هوامشها تعليقات ثورية، تركها في شقته القديمة المجاورة لجاره فضل. تعمد زيارتها ساعات المساء، كان يغادرها وقت الفجر، يفتح الباب، ويوصده بقوة كي يثير فضول المحيطين، ويوحي بحركة في الشقة المهجورة.

كرر ذلك مرات عدة.

مكنت معرفة الدكتور بخبايا «السلك»، من تدوين معلومات لا يعرفها غيره، وبالتأكيد سيكون رجل السردين هو المسؤول الوحيد

عن تسريبها، إن وزّع قطع الأحجية بالشكل الصحيح. كانت مؤامرته تقضي ببعثرة تلك القطع، وترك مهمة العثور عليها وجمعها معاً لـ «الجهاز»، ليقوده الخيط الأول إلى المستنسخ.

حبك كل شيء. أنشأ مدوّنة على الإنترنت داومت على انتقاد سلوكيات بعض رجال الدولة، وفتح الباب لشبان متحمسين لتوجيه العبارات اللاذعة لهم، تبادل معهم الجدل والآراء اللاذعة. فتح حسابين على فيس بوك، وتويتر ليزيد الطين بلة.

لم تتجاوز المسألة في نظره أسماء وهمية، وبعض الشعارات والصور ومقاطع الفيديو ينزلها من هنا وهناك على يوتيوب. كتب تعليقاته من أماكن مختلفة كي لا يفتضح أمره سريعاً، احتاجَ إلى وقت كاف لتعظيم التهمة على نفسه المتعالية. أدار اللعبة من خلف الستار، مثل دمى يحركها بخيوط رفيعة ليثير حيرة الجهاز.

«من يتجرأ على انتقاد النظام؟!» تعمد استفزازهم!

ارتاد صالونات ثقافية، يجلس في الصف الأول مستمعاً لا أكثر. أراد أن يبث الحيرة في قلوب الجميع، هو أم ليس هو؟!، رأى مرجي باشا مرة واحدة في أمسية شعرية. كان الباشا حينها معارضاً من الصف الثاني قبل أن يعقد صفقة مع النظام، ويغادر إلى بلد غربي. لم يشأ الدكتور أن يذكر تلك الواقعة في جلسة التحقيق في اليوم التالي.

سأله النائب العام: «كيف تجرأت على فعل ذلك كله دون أن تلفت الأنظار» ردّ الوزير بزهو واضح! حينها، إن كنتما تتذكران. الجميع كان يشاغب ويعلق، وكنت أعمل بسهولة في هذه الفوضى».

تنحنح الوجيه مرجي: «أتذكر تلك الفترة. شهدت ملاحقات أمنية لمدوّنين ومعلقين على فيس بوك.».

زاده تعليق الباشا نشوة وحماسة وعاد يسرد تفاصيل مؤامرته بكل ثقة وسعادة، قبل أن يقاطعه النائب العام بتهكم: «لكن أخبرني، كيف كنت تبيع الفول؟!»، ابتسم الوزير بعفوية: «تجربة جميلة. كنت أملّحه بمزاج رائق، وأتبّلُه بالكمّون والسمّاق وملح الليمون.و. وكنت أفاصل في ثمنه، أنتقي أفضل الأنواع والله. أضيف مزيداً من التوابل، الفلفل الأسود، وأكثرت من الليمون. ياه على تلك الأيام؛عرفني الكثير من باعة سوق الجملة»!.

ضحك النائب العام ومرجي باشا، وحتى الموظف الجالس في ركن الغرفة، قبل أن تأخذهم كلمات الوزير إلى عالم الدسائس.

***

في بحثه عن وسيلة محكمة لتوريط رجل السردين، داوم الدكتور على زيارات متكررة إلى بيوت المثقفين ورموز المعارضة؛ يتعلم منهم طرق الاحتجاج. أفصح لهم عن حَنَقِه على أداء الدولة، وجّه انتقادات لاذعة إلى القائد، لكنّه كان مرعوباً من فكرة أن يقتحم رجال الأمن تلك المنتديات. لم يتحلَّ الكثيرون بشجاعة كافية للتفوه بما قاله حينها، فقد تجاوز كل الخطوط الحمراء. شعر بتأنيب الضمير، «أنا مخلص للدولة».

ذكر كيف أوقفه رجل أمن أثناء خروجه من ندوة ثقافية، شده بعنف من ياقة قميصه. انتابه الجزع، لكن الرجل أفلته بعد أن تأمله جيداً. رجع الأمني إلى الوراء، واعتذر وانسلّ عائداً إلى الصالة.

أثار الدكتور ما يكفي من الريبة، وكان يدرك أن الجهاز بات يحاول رصد الشخص المسؤول عن كل تلك البلبلة. كانت مسألة وقت قبل أن يتوصلوا إلى هوية من يقف وراءها.

شعر بخطورة الأمر، وقرر أن يدرس كل خطوة لاحقة يقدم عليها.

كان عليه، كل مرة، أن يضرب ويتوارى. «من يتجرأ على انتقاد الحكومة بهذا الشكل وبهذا العمق. يبدو أنه شخص من الوسط، يعرف الكثير. الخائن نبش عش الدبابير وهو لا يدري أن نهايته وخيمة».

انتظر الجميع في السلك دليلاً واحداً يوصلهم إليه. كان الدكتور خائفاً من هذه المجازفة، وهو يعبث بمصيره هو أيضاً. يزرع حقلاً من الألغام، ويدوس عليه!

«أية مكيدة مرعبة أعدّها لنفسي؟! أي مجنون أنا؟!» قال مرة وهو يجلس في مقهى مشبوه.

«مهما قلتما عني. كان يجب ألا يفلت هذا اللعين «طبق الأصل». يجب أن تكون نهايته لا رجعة فيها. ولا مجال للتهاون. صدقاني، أن تتآمرا على الغير شيء، وأن تتآمرا على نفسيكما شيء آخر».

«صدقاني، ذرة شك في هكذا أمور قد تؤدي إلى التهلكة!»، قال الوزير وهو يستفيض في فضح فعلته أمام الباشا والنائب العام.

اصطحب الدكتور يوماً جمعاً من أبناء الوسط الثقافي؛ كي يتسامروا في شقته القديمة. مثقفون من كل الأطياف، يساريون وليبراليون ومتدينون، وجوه عامة سمع بها جاره «فضل» بالتأكيد. رآه أكثر من مرة برفقتهم. فعل ذلك متعمداً، علّ الشكوك تغزو قلبه، حدثهم عما يعرفه عن الدولة، والموسيقى الكلاسيكية، والفن التكعيبي، ذكر العديد من تلك الأسماء التي يعرفها لفنانين قدماء ومعاصرين، وكانوا كلما سمعوا اسماً، فتحوا باباً للنقاش يضفي إلى نهاية سياسية مسدودة!.

صعد السلم برفقةٍ مشبوهةٍ من المعارضين، عرفّهم على أنه «رجل السردين»، قال لهم إنه سئم من النظام، وإن على الجميع أن يجد طريقة ملائمة ومختلفة لفضح الفساد أمام العالم، صدقوه بعد أسئلة كثيرة، أو ربما أرادوا منحه الفرصة ليثبت لهم ذلك.

كان «فضل» يحمل أكياساً بلاستيكية فيها خضار وفاكهة لحظة لمحهم. وقبل أن يهم بدخول بيته، شاهد خلفه هذا الحشد. ألقى الدكتور التحية. وأبدى هو احتراماً كبيراً في البداية، ظنّ أنه المستنسخ. رجاه الدكتور الانضمام إلى المجموعة، مُتْبِعًا دعوته بابتسامة خبيثة.

لم يتردد «فضل» لحظة، دخل بحسه الاستخباراتي. لم يعرف الآخرون هويته الحقيقية، واطمأنوا أن «رجل السردين المزعوم والمنقلب على النظام» لن يدعو ضابطاً أمنياً إلى جلستهم، انطلقوا في حديث طويل عن أخطاء النظام، وضرورات التغيير.

ظنّ «فضل» أن الدكتور يستدرجهم إلى جحره. غمزه وابتسما. قال الدكتور، في عقله: «ألم يفهم الرسالة بعد، أم عليّ أن أقولها بصراحة؟! الأحمق يعتقد أني أوقعت بهم لا أكثر.»، اضطر لأن يقولها بصراحة كي يفهم مقصده؟!. مال وهمس في أذنه: «حان موعد التغيير. هناك هيجان في الشارع، وإن لم نلحق أنفسنا سوف نضيع بين الأقدام، كل شيء ينهار، علينا أن نبحث لنا عن مكان في الفترة القادمة، ونقفز من السفينة في الوقت المناسب، إنها تغرق، إذا أردت أن تنضم إلينا، فسوف أضمن لك مكاناً جيداً؟».

أطرق «فضل» برهة، ونظر نحوه باستغراب. خيّم عليه الوجوم وهو يسمع كلاماً وقحاً عن الدولة وأخطائها من رجل يفترض به أنه من حماتها، والموالين لها. أفصح الدكتور له عن استيائه من الجهاز، أفشى بعض المعلومات عن فساد يستشري فيه، وقيادات «غبية» تتحكم بكل صغيرة وكبيرة. فغر فضل فمه متعجبًا. غادر الدكتور متيقناً أن كل كلمة لفظها سوف تُنقل، حرفيًّا، إلى القيادة؛ على لسان رجل السردين.

إن لم يكن اليوم فغدًا!

«حسناً. كل ذلك لا يكفي.» فكّر. من السهل أن يتملص المستنسخ من هكذا مؤامرة. سوف يوضح موقفه بادعاءات وتلفيقات، وليس

غريباً أن يعتقلوا فضل عوضاً عنه، ويخرج رجل السردين منها مثل شعرة من العجين.».

يمكن التغلب على أية مؤامرة؟ باستثناء أن تكون إرهابياً يحاول اغتيال رأس النظام. لا شيء يغفر لك الخروج عن الولاء للرئيس.

بعث على حساب إليكتروني من حاسوب، في شقته القديمة، رسالة إلى مدوّنة مرصودة لجماعة متطرفة، كتب فيها كلمتان: متى نلتقي؟

كتب خطة كاملة، على الورق، عن كيفية اغتيال رئيس الدولة. قضى ليلة، بطولها، يملأ عشرات الصفحات بخط يده عن طبيعة خطة الاغتيال المزعومة، تفاصيلها، ودوّن أسماء ثلاثية وهمية،كتبها باعتباطية. لم يفُته أن يكتب أسماء حقيقية كالشيخ عزمي؛ فهو ميت على أي حال. فكّرَ: «من أختار؟. من؟ من؟ زميلي في الجامعة، مصطفى. لديه أسبابه للاشتراك في المحاولة» – ضحك – «لن يقدم عليها سوى مجنون مثله، نعم وجاري «فضل». لمَ لا؟ تمنيت أن يختفي هو وتعاليه».

برر العملية بأسباب قرأها من عناوين صحف معارضة على الإنترنت: فقدان العدالة الاجتماعية، الفساد، التمييز وإقصاء الكفاءات. القمع. غياب القانون. تدهور التعليم. تردي الصحة. لم يترك حجة لم يدونها. «سهل أن تسترسل في كتابة هذه الذرائع. ما عليك سوى أن تنقلها حرفياً من مواقع إليكترونية حفلت بهذه الأخبار.»

اشترى بندقيةً ومسدسًا، وطلب من وسيط أسلحة أن يدبّر له قنبلة يدوية، مهما كان ثمنها. تصرفّ بتهور هذه المرة!!

التقط صوراً لخط سير موكب الرئيس، وأخرى للقصر الجمهوري

في الضاحية الشمالية. خبَّأ كل ما جمعه في صندوق معدني، ووضع معها وصولات الشيخ البنكية؛ ليضيف شبهة التمويل من الخارج لعملية إرهابية.

دارى الصندوق في سقيفة الشيخ عزمي؛ كانت نائية بما يكفي لإكمال حبكته. وكتب عنوان السقيفة في ورقة طبقها ووضعها في سلة المهملات في مكتب داخل شقته القديمة، خمّن أنهم سيبحثون فيها ساعة تحل اللعنة، ويقلبون الدنيا رأساً على عقب.

***

هرش الوزير أظفر سبابته وهو ينظر إلى الأسفل، تفادى نظرات المحققين، وواصل ملحمة الخروج على الدولة: قال إنه ابتكر تحفته الفنية: (سلقتها. وتبّلتها، وملّحتها على نار هادئة. مثل الفول النابت، وعصرت عليها ليمونة!). كانت مؤامرة لا يخرّ منها الماء. إبداع حقيقي. قطعة موسيقية بكل ما في الكلمة من معنى، وظّفت فيها قدراتي البوليسية. وكان يجب أن أنسج خيوطها بإحكام.

فعلتُ كل شيء يمكن أن يودي برجل السردين إلى صفيحة معدنية لا يخرج منها أبداً. أعددتُ جريمةً كاملةً تنتظر الضغط على الزناد. أجمل ما فيها، أني كنت أعمل بحرية، ومن دون اكتراث. أترك بصماتي هنا وهناك، عن سبق إصرار، راهنتُ أنه يحمل البصمات نفسها. على أي حال، بصماته كذلك كانت في شقتي القديمة. كانت مؤامرة سلسة، لا

تتطلب الكثير من الجهد، فلا يوجد أسهل من توريط نفسك في هكذا عمل!.

اتصلت من هاتف عمومي لأحذر الأجهزة الأمنية من مؤامرة تستهدف الرئيس.

أعطيتهم بعض التفاصيل. القليل. عن شقتي وحركة مريبة تدور هناك. لم أراهن على ذكائهم. كان يجب مساعدتهم! ما يكفي لبدء تحقيق جاد يرشدهم إليه. وحين سألوني السؤال المتوقع: من أنت؟ قلت: «فاعل خير!!». وضعت السماعة، وتواريت عن الأنظار. المؤامرة لن تكتمل بوجود اثنين مني في مكان واحد.

اختبأت في الشقة الجديدة المشرفة على مقر سكنه، ملأتها بما يكفي من مؤن، ومكثت فيها أطول مدة ممكنة بعيدًا عن أعين العسس، متلهفاً لرؤية تقاطيع وجهه ساعة يسحلوه بالأغلال إلى المجهول!).

تركتْ هذه التفاصيل علامات تعجب على وجه النائب العام. نهض وابتعد عدة خطوات قبل أن يشير لمرجي باشا أن يلحقه. فتح النافذة مفسحاً لضجيج الشارع فرجة للدخول، تحدث بنبرة منخفضة: «الرجل يقول تفاصيل دقيقة عن محاولة الاغتيال الفاشلة التي أعلنت عنها السلطات قبل سنوات. أنا متأكد مائة في المائة، لقد قرأتها حرفياً. ثمة بعض الاختلافات، لكن لا يمكن لرجل من العامة أن يطلع على هذه التفاصيل الدقيقة».

بهت مرجي باشا: «هل تعتقد أن قصة الشبيه حقيقية؟!»

ـ لم لا؟ ربما ليس كما يقول، جزء من روايته صحيح.

ـ وما العمل الآن؟

ـ لنسمع بقية الأقوال، ونبني تصوراً كاملاً، قبل أن نتصرف.

وافق مرجي باشا على هذا الاقتراح. أحسّ أنه قد يستطيع أن ينتفع بهذه الاعترافات. علّه يواجه بها خصومه في الحكومة.

التيه

"أتعرفان!»، قال الوزير قبل أن يتعثر بسجادة الغرفة، نظر تحته، بدا أنه يلعن من وضعها. واستعاد صورة الرجلين المهندمين قبالته، والموظف المستكين، استرجع رزانته. والتزم الصمت لثوانٍ. جلس بخشوع، وقال بنظرته الزائغة تغمرها الكراهية: «ثمة حقد لا يمكن وأده أو حرقه أو الدوس عليه. لو كان الأمر بيدي في تلك الفترة، لأضرمت النار في الكرة الأرضية.»».

عندما أكمل الدكتور سلسلة مؤامراته، تباعًا، مكث في شقته الجديدة القابعة في الطابق الثالث، لا يخرج أبدًا. يفيق صباحًا مع فنجان القهوة، ووجبةٍ خفيفةٍ. ولا يفتح الباب إلا ليأخذ الجريدة المطوية على سجادة المدخل. يجلس مسترخياً على مقعد كبير من القصب في شرفته يترقب لحظة عمل من أجلها بعناية. ويبحث في القنوات الفضائية، والنشرات عن الخبر الذي ينتظره.

بعد ثلاثة أيام من مكالمته الهاتفية، انتاب المدينة سعارٌ قرأه في صحفها. اعتقالات واسعة طالت أوساط المعارضة. وجوه رافقته إلى شقته القديمة. سقطوا، الواحد تلو الآخر في قبضة الجهاز. تبخروا في معتقلات يخاف الناس ذكر أسمائها. في التحقيقات تحدثوا عن أوصاف

ترشد المخبرين إلى المستنسخ. زاد الهوس الأمني، وكثرت الدوريات في الشوارع.

لم ينس ذلك المشهد. يوم ألقوا القبض على رجل السردين، جروه من مقر إقامته الرسمي أمام جمهرة صغيرة في الشارع، رآه الدكتور من شق الستائر، يخرج برفقة رجال الأمن، وكيف أبعدهم مواجهًا جَمْعَ الرجال وحده.

كانوا متراصين، مأخوذين بهيبته كمسؤول رفيع في الدولة. كأنهم أرادوا من التصاقهم ببعض أن يوحدوا قوتهم في وجهه. وما أن اقترب حتى تجرأ أحدهم وسحبه من ذراعه. شجّعهم هذا على أن ينقضوا عليه، ويسحلوه بقسوة.

كان الدكتور كمن غادر جسده، ووقف بعيدًا يرقب نفسه بهدوء وهي تتعرض للإهانة. يتلقى سيلاً من الضربات. تتوقف. وتباغته صفعة تفقده توازنه. يساعده رجلٌ ضخم على النهوض مجدداً. يخاله يشفق عليه، يستعيد إدراكه لمنصبه فيصرخ مزمجراً، مبعداً يده الكبيرة عن كتفه.

يحاول أن يخرج شيئاً من جيبه. فتنهال عليه اللكمات. يسقط الهاتف الجوال، ويتناثر قطعاً صغيرة. يتوّسل. يبصق دماً. لا فائدة.

يصمت، يهدأ الجميع. يتكلم. يستأنفون الحفلة.

رأى رجل السردين يبكي، لأول مرة، ولا أحد يكترث. ذكّرهم بموقعه في الدولة، والسلك. استفزهم أكثر. كانت الأوامر واضحة: إن هددكم بعلاقاته، أوسعوه ضربًا. سقط على ظهره، أخذ يرفس

ويحرك ذراعيه في كل الاتجاهات، يطلق السباب، ويبصق ويلعن ويزبد ويعربد. شعر الدكتور لوهلة بالشفقة عليه، لكن سرعان ما أحسّ بالارتياح حين تذكر تعذيبه له.

قفزوا فوقه. اختفى أسفل كومة بشرية تباطأت حركتها، وأخفته ظهور الرجال العريضة، تشرئب كيعانهم وتختفي.

بعد دقائق، انفضّ عنه الغطاء، ووقف بملابسه الداخلية. وجهه أحمر رطب. سقط ما تبقى من هيبته. صعد بأدب إلى السيارة. محتضنًا ملابسه وهوانه بين ذراعيه.

طوّق الرجال الملثمون كل المنافذ، ملأ منظرهم المكان رعبًا. والجمهرة التي تجرأت على الوقوف، اختفت في لحظة. منعوا المارة من الاقتراب. ظل البعض يتابع ما يجري من خلف نوافذ البيوت الفاخرة. انطلقت السيارة بسرعة، تزفها أربع عربات كبيرة مدججة بأعقاب البنادق. وانتشر رجال يضعون نظارات سوداء، تعمدوا إظهار كعوب مسدساتهم خلف ظهورهم في كل زاوية من الحي، يحملون الأجهزة اللاسلكية تطلق عبارات قصيرة ومبهمة لمراسلات بين شبكة واسعة من الأمنيين تغطي كل ركن في المدينة.

بقي الدكتور مختبئا شهرين كاملين. حتى نفذ ما لديه من مؤونة، يقضم من أرغفة الخبز اليابسة، والجبن الجاف، إلى أن انتقل إلى مكان آخر. أخذ معه ما تبقى من مال الشيخ عزمي، ورحل إلى الجنوب، حيث المدن النائية، والناس يقايضون الحديث عن السياسة بكلام عابر عن الحياة الرتيبة.

أقام فترة طويلة في قبو، وأخرى في غرفة على السطوح، وفي فنادق رخيصة. بين قرية ومدينة، لم يمر عليه أسبوع حتى ينتقل إلى بلدة أخرى هرباً من الفضول والشائعات. ومن عيونهم. أبناء الجهاز، ينسلّون. يظهرون في أحاديث مبتورة، منصتين بحرص ليستكملوا الحدوتة من إشارة أو رعشة أو إغماضة تتحاشى تطفلهم المباغت.

انتشروا في كل مدينة كبيرة وقرية، يقتاتون على كلام ساكنيها، يجمعونه كما يلتقط المزارعون حبات الكستناء. قضى الدكتور ما ظنّ أنها فترة كافية لتحاشي ترصدهم. راهن على ضحايا آخرين يشغلون أوقاتهم. فهم لا يكلّون. يبحثون دائماً عن قربان يقدمونه على مذبح الولاء للدولة.

استولى المستنسخ على حياته. أخذها معه ومضى، مثل قمقم امتص دخانه، وأوصد سدّادته على نفسه، ورحل من غير رجعة. ذوى رجل السردين في غياهب المعتقلات. لم يُبق له شيئا يعتاش منه. ورغم كل ما فعله الدكتور. لا يقدر أن يسترد اسمه الذي صار أكثر الأشخاص مطلوبين في البلاد. مشطوب من سجلات الدولة. وبالنسبة للجهاز. كان خطراً لا بد من إزالته حياً كان أو ميتاً. موقوفاً أو حراً طليقاً أو شبيهاً. لا فرق.

أية مصيبة وضعها فوق رأسه؟!!

لم يثنه ذلك، قال: «على الأقل، أرجع إلى داري، أعيش مثل بقية الخلق. بلغت الخمسين. أود أن أرتاح في آخر عمري»، يا جماعة: «جابي الضرائب، ساعي بريد، موظف البلدية، الزبّال. كلهم يتقاعدون

ويستريحون، ويلعبون الورق في قهوة وضيعة. وأنا وكل إنجازاتي لوطني لا أستحق هذه المكافأة البسيطة. ساعة صفاء أعيشها قبل أن أموت؟!).

وضّبَ حقيبته، واستجمع شجاعته، ليعود إلى مكان إقامته. فكّرَ: «هذه شقتي. لا الدولة ولا المستنسخ يستطيعان أن يسلباها مني. أحمل مفاتيحها في جيبي منذ غادرتها. هي الأثر الوحيد المتبقي من حياتي السابقة».

تذكر جاره «فضل». اقتنع بفكرة أنه في المعتقل يتلقى الضرب والشتائم. «من المستحيل أن يطلقوا سراحه. هكذا بكل بساطة؟! يتآمر على الرئيس، ويسامحونه. لا يمكن أن يحصل ذلك! أعرفه. نظام قمعي لا يغفر لأحد. «.

قرر أن يتحرّى الأمر قبل أن يقدم عليه.

تخفى وتصنّع دور صديق قديم جاء من الغربة. سأل هذا وذاك. أخبروه أن عائلة «فضل» رحلت منذ زمن بعيد. «هوو هووو ذاك الرجل. لم يره أحد منذ سنوات. عائلته تركت الحارة واختفت. تلك المسكينة زوجته، والله عانت الأمرين، عاشت على الإعانات والصدقات، باعت ما فوقها وتحتها لتوفر اللقمة!».

عاد، واتخذ قراراً صارماً. «لن أسمح لأحد من جيراني القدامى أن يبدأ حديثاً معي، سوف أستعيد هالتي المخيفة لأبعدهم عني، وأقطع الطريق على استفساراتهم».

لم يبادلهم الكلام، واكتفى بأن يشير بأصبعه مرة إلى العدم، ويترك

كل شيء من دون تعليق في باقي المرات. لم يتجرأ معظم أهل الحي على سؤاله: أين كنت؟ كيف خرجت؟ ماذا تفعل؟ هل لا زلت تعمل في الجامعة؟ أو حتى مجرد عبارة: «كيف حالك؟!».

في البداية، نحّوا وجوههم بعيدًا كي لا تلتقي بنظراته الكاسرة التي اعتادوا رؤيتها كل صباح. كان قبل ذلك لغزاً محيراً لهم. أبقى هيبته يقظة لأنه يحتاجها حاضرة في كل وقت. عودته فكرة مجنونة، ولم يكن بيديه حيلة سوى الكمون!

الوضع كان كئيبًا وفارغًا. خواء لا طعم له. رتابة، وبردٌ قارس يغزو جنبات الشقة المقفرة رغم حلول آذار. كانت المدينة باهتة تبحث لها عن ألوان أسفل غمام متقطع نكد ضيّع عليها بهجة التبرج بأزهار الربيع. صار يخاف من الباب يدق، ويسألونه عن نفسه. ألم نعتقلك قبل أعوام، كيف يُعقل أنك خرجت من سجن شديد الحراسة؟!

عاد الخوف، وظلت مرارته عالقة في ذهنه.

يصحو. ويذهب إلى الحمام. يرشق وجهه بماء زمهريري، وينظر في انعكاسه في المرآة، وكلما بحلق أكثر في ملامحه، يرى شخصاً آخر ليس هو. وجهه معه أو خلفه مباشرة، قالب من الشمع ملبد بتجاعيد مسطحة. وتساءل: «هل عاد في جسدي. هل أنا هو فعلاً؟!. هل كل ما رأيته وفعلته كان هلوسات، هل كان حقاً هناك، وعاد ليلتحم بي، ويذوب في خلاياي كأنه لم يكن يوما.».

يلمح ظِلَّه خاطفًا يعبر إلى المطبخ. يستيقظ، فزعًا، من قرقعة ملعقة تعبث بطبق فارغ. يحسبه في المنزل. يناديه باسمه. وفي المساء. ليس هناك

كهرباء، يكتفي بضوء الشموع. تتمايل شعلاتها، وتهز الغرفة بظلالها المتراقصة. ويقضي ليلته، ملتفاً على جسده. ينتظره، وينتظر رجال الأمن متدثراً ببطانية حتى ينام من شدة الإرهاق والنعاس.

«ليس لي أصدقاء، وإن يكن. كيف أعلن وجودي. إذا كنت موجوداً فيجب أن أكون في السجن. وإن لم أكن، فماذا أنا فاعل في هذه الشقة؟! هكذا يجب أن أبقى. حكم عليّ المستنسخ بالموت حياً.». أرّقه التفكير في المستقبل. كيف يعيش من دون اسم؟ أرعبته النظرات الوقحة، فضول أهل الحي، يدنو منه، ويختبر شجاعته، باغتوه بالأسئلة. تقاطرت جدران الجليد أمامهم. ذابت وانسلّت سيولاً رقيقة في مجارير الأرصفة.

تجلّد بوجه شرطي متجهم عله يستعيد ما ضيّعه عليه ذاك المستنسخ. هكذا رأوه عابساً من دون سبب. اختصر الحديث بكلمتين. يفهم من يسمعهما أنه مشغول، فيتوقف عن مضايقته ويرحل. يقاطعهم: ماشي ماشي. ويمضي في طريقه. يسأله أحدهم كيف حالك؟ يرد: ماشي ماشي. تسأله عجوز البسطة على الرصيف. «أين كنت يا ولدي؟ والله لك وحشة. افتقدناك». يرفع رأسه إلى الفضاء ويجيب: ماشي ماشي. مديرة المدرسة الابتدائية. أحالوها على التقاعد. بنفس شعرها المقبب، مذ رآها أول مرة. أحمر الشفاه الفاقع يفيض ويخط ظلاً لشفتيها الصغيرتين. وتلك النظارة البلاستيكية البنية تأكل نصف وجهها. كل شيء فيها يمتد إلى الخارج. تراه، وتهتف مبتسمة: «كيف أحوالك يا أستاز؟» وتشد على الزاي. يعطيها ظهره بكلمتين كأنه يلقي لها برغيف خبز جاف.

بهتت قدرته على بث الرعب في قلوبهم. نأى بنفسه عنهم أكثر من أي وقت مضى. وكلما تحاشاهم أكثر، زاد تطفلهم. كثرت أسئلتهم. وزاد صمته. تطاولوا. صار يتلقى شتائم مثل طلقات طائشة. لا يعرف من أين!

لم يكن معه المال الكافي ليبقى. ولن يتمكن من الصمود إذا ما أنفق كل ما يملك في شقة بالإيجار، كما أنه متعلق بشقته، ولا يقدر على البقاء فيها، ولا يملك الشجاعة على البقاء فيها. الوضع صار مستحيلاً. حلّ الصيف مبكراً مع أيّار. وهو شبه مفلس. باع أثاث البيت، وأبقى أغراضًا قليلة يعيش بها. غريب!

«كيف تصبح البيوت مرعبة وهي عارية. تأسرك لتحتضر في جثتها، وتموت معها». زاد خوفه. شعر بالضيق والهلع من كل شيء قدماه الحافيتان تحفان الأرض، وتهرسان الرمل في أذنه. لا يدري أهو سمعه أصبح خارقاً، أم أن السكنات صارت تدوّي مثل انفجارات في أذنه.

بوق سيارة منزعجة في الشارع، تطلب منه إفساح الطريق وهو قابع في شقته، صراخ الأطفال يتسابقون على الدرج، ضوضاء في الشقة العلوية. جارته تناديه: سوسن، وتأمره أن يكمل الواجب المدرسي، ويجلي الصحون، وينام، أو تحرمه من المصروف. ابنها فتحي يعدّل الصحن اللاقط باتجاه القمر الصحيح. ويطلب منه أن يتحقق من القنوات، وينظر فلا يرى التلفزيون في الصالة. الأصوات تدفعه إلى الجنون. والعرق ينساب منه بغزارة، ولا توجد لديه مروحة تخفف عنه قيظ الظهيرة الطويل.

لم يكن أمامه من خيار سوى الرحيل من جديد. ربما يذهب إلى سقيفة الشيخ عزمي، فهي بعيدة، ولن يراقب الأمن مكانًا مهجورًا، هذا إن ظل البيت على حاله. ولم يزيلوه عن الخارطة.

وضع جبّته على كتفه، فتح الباب ليهم بالخروج.

كانوا ثلاثة يقفون على أطراف مثلث وهمي، أحدهم يسد مطلع الدرج، والثاني يسأل جارته عنه، والثالث يواصل ضغط زر الجرس من دون فائدة. لم يرن، ولم يسمع، فلا كهرباء عنده.

***

خنصر وبنصر

هشّ النائب العام ذبابة تطايرت قرب أنفه، وسأل مباغتاً مناورتها حول وجهه: «عثروا عليك أخيراً؟» بالفعل. ردّ الوزير. تعلو محيّاه صورة كئيبة لذكريات مريرة. تكلم بأسى يحبو فوق كلماته المتعثّرة:

(كانوا ثلاثة رجال يقفون على باب شقتي. حدّق أكبرهم عمراً في صورة على كفه. وقال بنبرة تغمرها السعادة. «إذن صحيح!!». هي العبارة الوحيدة التي سمعتها قبل أن يطوقوني مثل كماشة.

مشى الكبير أمامنا، يهزّ كرشه؛ بانتصار. رافقوني إلى الأسفل. رمقني الجيران بنظراتهم المتشفية إلى السيارة. لم أقاوم. أعرف ثمن الامتناع عن ركوب سيارة الأمن. كنت الأكثر قدرة على تخمين ما سيكون من بين كل الموجودين، إلا أني اندفعت خلف هوسي. كان انتحاراً مؤجلاً لا أكثر!

توقعت كل شيء، باستثناء أن يكون جاري «فضل»، هو المحقق المسؤول عن القضية. كلفوه بمتابعة الملف لدرايته به.

كيف خرج، وكيف وصل إلى هنا؟ لم أسأله؛ لأنه جاوبني لحظة جلس على الطرف الآخر من الطاولة، في حجرة صغيرة جداً. لم أتكلم.

الصمت نعمة في هكذا ظرف. «بالتأكيد أنت تتساءل كيف خرجت؟ لأنك يا عبقري زمانك، أشركتني في تلك الجلسة، في شقتك، هل تتذكر؟، هيأت لي الظرف، وقمت أنا بعملي. أرسلت تقريرًا مفصلاً إلى القيادة قبل أسبوعين من مجيء رجالهم إلى شقتي. قال المسؤولون إن توقيت رسالتي يشفع لي عندهم. اعتبروني أول من كشف خيوط المؤامرة، قرأتها؛ سطرًا سطرًا، وكيف دسستَ اسمي في قائمة المشبوهين، لكنهم أفرجوا عني، عدت إلى السلك، وحظيت بترقية، وصرت برتبة مقدم».

أمسك رزمة أوراق. قلبها بين يديه. وضعها على الطاولة. تتبع أصبعه على السطور كأنه يقرأ بعض مقتطفاتها. زوَرني بنظرة من أسفل نظارته. بدا عليه عدم الاكتراث. سألني:

- كيف هربت؟

- هربت؟!» قلت في رأسي «آه لو تدري، هناك آخر مني في السجن». أنا وأنا!

نظرت إليه باستعطاف:

- أنا لم أفعل شيئًا.

- صحيح؟!!

رفع حاجبيه، وزمّ شفتيه، متعجباً بسخرية.

- هذا، على الأقل، ما أعرفه.

لم يضربني كما توقعت. تركني وأوصد الباب خلفه. وبقيتُ وحدي. عرفتُ أنني سأنتظر طويلاً. ماذا تراهم فاعلون بي؟ فكرت: ماذا تراهم

فعلوا برجل السردين؟!

لو أني رضيت بذلك الوضع، وتعايشت مع نفسي، لربما وصلنا معًا إلى تفاهم أنا ورجل السردين، ربما حكمنا العالم. هل تعجّلت في التخلص من شبيهي لأورط نفسي أنا؟

لم يكن هناك وقت للندم، ولم يكونوا ليسمحوا لي بذلك. سوف يعلقون مشنقتي. هل هربَ فعلاً؟ لا يعقل. من المؤكد أنه ضاع في أقبيتهم. وحتى يتوصلوا إلى حقيقة أننا شخصان مختلفان سأبتلع الخازوق. وإن عرفوا كل شيء. ما يمنعهم من الإجهاز على كلينا؟!

خمس ساعات كاملة قضيتها جالساً من دون حراك على كرسي خشبي صلب، خمس ساعات لم أتجرأ على النظر حولي لأكثر من ثانية، كان رأسي يدور ويدور. وحدقتاي ترتجفان مكانهما، غارقًا في ضوء باهت للمبة صفراء استقرت فوقي مباشرة.

ظلّ الصمت يطبق الفراغ، ويحشوه في أذنيّ. إلى أن انشقت فرجة صغيرة، زعق معها الباب صوتاً نشازاً لكمان يتمرن صاحبه المبتدئ على العزف. أدخلت الفرجة شعاع نور شق الغرفة إلى نصفين. رأيت أظافر ضخمة ومتسخة تمسك الباب. علا بعد ذلك جدال بين رجلين:

- لماذا لم يحضر رجلك العشاء الذي طلبته؟

- مطعم الشحرور، مقفل.

- بل رجلك، ابن الحرام، يحب الدجاج، من قال لك إني أحبّ الدجاج؟!

- غدًا نرسله لإحضار شاورما اللحم.

– غدًا أرسلك إلى المرحومة أمك!

عندما دخل بكامل جسده الضخم، حجب الضوء الخفيف المنبعث من خلفه وغطى على رجل ضئيل الحجم التصق به كطفل. أدركت ساعتها أن ما سيأتي أصعب. أسقط العملاق رأسه للأسفل كي يتمكن من العبور من طوق الباب الضيق. دخل ببرود كأنه يعرف طريقه في الداخل المعتم. تبعه الصغير يبحث عن شيء ضائع في الغرفة. كانا مثل إصبعين متلازمين؛ «خنصر وبنصر».

دنا العملاق، وأمسك رقبتي دون أن يعيرني أيّ انتباه. أردتُ أن أقول له: «هذه رقبتي التي تمسك بها. على الأقل، تحلى بالأدب الكافي لتلتفت إليّ حتى لو أردت ضربي!» تحدث للصغير: «عكّرت مزاجي. دجاج! كان يجب أن تذهب أنت لا هو.» واصل جداله، كأني لست الشخص المراد التنكيل به. أخذ الثاني وضعية المتأهب ليسحبني من ذراعي. بدت الحماسة واضحة عليه، وكأن فرصة الضرب لا تتاح له دائمًا بينما يستحوذ العملاق على متعة الضرب وحده!

حملني الضخم على النهوض من دون جهد. وتابع وكأنه يعصر قميصًا دعكه بالماء والصابون: «يا بني آدم قلت لك شاورما لحم فتحضر دجاج. دجاججججج؟!» تأفف بحدة. ودون مقدمات. تذكّر أنه جاء من أجلي. رأيتهما. نعم رأيتهما. الحدقتين الداكنتين المكبلتين بشرايين دقيقة.

بدا لي، في تلك اللحظة، أنه لولا تلك الشبكة الحمراء لسقطت عيناه على الأرض. تساءلت وهو يتلقفني، مثل عجينة طرية: «من أي أرض

سحيقة يجلبون هؤلاء المجرمين كي ينهالوا علينا ضربًا؟!».

طارت قبضته الحديدية قبل أن تحط على صدغي. درت حول محور جذعي، وتلقفتني الأرض. خمّنت أنه يضربني غيظًا بعد أن ضيّع متعة أكل شاورما اللحم. شعرت أن أحدَهم يساعدني على خلع قميصي. شيء من هذا القبيل. إنه الغول. ينهضني من جديد. صفعة أخرى طارت بي قرب الجدار.

اختطفتُ نظرة سريعة إلى الصغير، جلس يأكل أظافره ندمًا على الكرسي. بدت على وجهه التعاسة. «ماذا يفعل؟ إنه يشاهد فقط!»، انكمش يأكله الضجر، ويفترسه الخوف. تمنيت لو يأخذ نصيبه من الضرب عقاباً على تقصيره، لعلّ ذلك يخفف عني بعض العقاب. وما نفعه هو طالما هذا الفيل يقوم باللازم؟!

سحبني البنصر العملاق من أذنيّ. لا أدري كيف صرت منتصبًا بين ذراعيه مرة أخرى. قدّرت الخطوة التالية. جثوت على ركبتي أخاطب الخنصر: «أتوسل إليك أن تجلب له شاورما اللحم!» لستُ أدري لماذا تفوّهت بهذه العبارة. ربما كانت ستخفف من غضبه. الجوع قاتل. أنا نفسي كنت جائعًا.

تجرأ «الخنصر» الصغير، وجذبني من بين فكي العملاق الذي استسلم له فجأة، وأرخى ذراعيه ليمسح بعض العرق عن جبينه الواسع. ربما أخذتهما الرأفة، «هل بات يدرك خطأه»؟!. شبك الصغير أصابعه الناعمة بكفي، والتقط خنصري، هل تعمّد ذلك؟ هل لأني أسميته خنصراً في عقلي!! لواه بتؤدة، وشرع يراقب ردة فعلي بفرح

غامر، كأنه ألقى للتو أحجية، وينتظر مني الجواب. أحسستُ دغدغة، وغالبتُ ضحكة انفجرت رغمًا عني.

خشيتُ أن استفزه. ثوانٍ قليلة. أردت أن أسأله متحامقاً: «ما حاجتك بخنصري يا خنصر؟؟!. أو ربما ما حاجة الفرع به هو؟!».

بالكاد قلت «ماذا؟!». أطلقت إثرها صرخة تفشت في المبنى. كسر هذا الصغير إصبعي. وقفزت أتلوى من شدة الوجع. قبضني العملاق من كتفي، وجرني خلفه إلى غرفة في الطابق السفلي، كنت أصرخ بعلو صوتي وأبكي. «الخنصر كسر خنصري!». وذلك العملاق يكومني ليلقي بي إلى هوة معتمة. القذر أقول له: إصبعي مكسور، ولا يتوقف عن إلقاء اللوم على زميله. دجاج ولحم. لتذهب الشاورما إلى الجحيم. إصبعي مكسور، أين حقوق الإنسان. سمع العملاق هذه العبارة، فأطبق الباب على كفي.

«صدقاني لم أعد غاضبًا منهما، فما جرى لهما بعد ذلك، يدمي القلب، ويثير الشفقة.».

لم يتسنّ لي أن أتبين المحيط العفن.

بعد نصف ساعة. فتح العملاق الباب ممسكاً بشطيرة دجاج، تفوح منه رائحة ثوم نافذة. خطف نظرة سريعة. واستلقيت أنا أتضور جوعاً، أحاول أن أستجمع قواي، لأبتعد عن الماء الآسن الذي رماني فوقه. شاهدته يقضم قطعة، ويلوكها مصدرًا صوتًا مقرفًا. رجوته أن يلقي لي بشيء آكله. أعاد ساقه للخلف، وأطلقها قذيفة في وجهي.

لن ينسى الوزير أبداً تلك الفترة القاسية من حياته. وما أثار رعبه طوال سنوات هروبه من مكيدته لنفسه، تجسد أخيراً في أيام لم يقوَ على حصرها، هل مرت عليه سنة أم بضعة أسابيع؟

العتمة تبتلع المكان. ظلم ليلتين كاملتين في الجُبّ، بلا أكل أو شربة ماء. تفحص الغرفة على أطرافه الأربعة يبحث عن ركن يأويه من الظلام، وينتظر معه وقْع أقدام تأتي ولو بصفعة أو ركلة تفقده الوعي. أي شيء يستفز الحياة في جسده، أو حتى يقتله ويريحه من هذا العذاب.

ضاع في دوامة من الأسئلة، لماذا فعل هذا، لماذا لم يفعل ذاك؟ هل كان ضحية لنفسه أم المجتمع. أو ربما «العجوز» السكّير؟!

أقبل العملاق. مدّ ذراعه الطويلة يعبث بأحشاء الحجرة الداكنة. قلبها؛ يبحث عن أطرافه. تحسس ذراعه. طوق أنامله الضخمة حولها. «انهض» التصق الدكتور بالجدار محاولاً النهوض، عبثاً. ألقى بكامل جسده على كتفه. صاح العملاق: «تريدني أن أحملك؟!» لم يجبه. تمنى ذلك. طوّق رقبته بذراعه، وضغط عليها بعضلاته المفتولة حتى كاد يخنقه، سدّد الدكتور ضربات عديمة الجدوى لظهره كي يتفلت منه، كأنه يضرب جدارًا خرسانيًا.

مشى يتأبط رأسه، والدكتور خلفه يفتعل خطوات مبعثرة. إلى أن وصلا غرفة في آخر الرواق. فتحها «البنصر» ورماه؛ خروفًا ينتظر الذبح. تدحرج، واستقر أسفل طاولة خشبية. جمع أطرافه المبعثرة واستوى ينهج بصعوبة، ويتفحص المكان بما تبقى له من وعي.

دخل «الخنصر» يحمل طبق طعام، وكوب ماء. جحره بنظرة خاملة. وخرج.

لم يكترث الدكتور لما كان في الصحن. المهم أن يستغل لحظة الكرم النادرة، ويمسح ما فيه. مدّه الطعام ببعض الحيوية، توكأ على الكرسي لينهض، وجلس ينتظر. توقع أنها جلسة التحقيق الثانية برفقة «المقدم فضل».

عاد المقدم بالفعل يمسك رزمة أوراق. انتاب سلوكه غرابة، دار بها حول الدكتور. قبل أن يقعد، ويباغته بسؤاله: «من أنت؟!».

«لن أبالغ إذا قلت لكما إني طرت فرحاً بهذا السؤال. أردت أن أتمسك بذرة الشك التي خامرته، وسردت له قصة عني؛ «شقيقٌ توأم ادّعيته في لحظتها!»».

«أنا من دارت عليه الدوائر. وأبي العجوز الظالم. طردني من البيت وأنا في السابعة، بلا أية إثباتات. ونشأتُ مشردًا في الشوارع، أتسوّل الناس، وأقتات على فضلاتهم، وعاش توأمي معه، ونشأ، وصار على ما صار عليه. أما أن يتآمر على النظام فهذا شأنه هو، وجريرتي أنه نسخة عني!»

قال الدكتور حينها إن الصدفة جاءت به إلى بيت شقيقه الخاوي يسأل عنه لا أكثر بعد غياب. وركع يتوسل فضلاً باكيًا ويردد أنهم اعتقلوه من دون سبب، وأن هنالك سوء فهم، وعليهم أن يتثبتوا من

كل شيء، وسيجدوا أن شقيقه مودع لديهم في أحد السجون.

أنصت «فضل» لكل كلمة قالها الدكتور، ولم يقاطعه. تناول كوبًا من الشاي، ورشف ما تبقى في قعره، ولوّح رقبته في دائرة كاملة: «لكن بصماتك مطابقة لبصمات من تدّعي أنه شقيقك التوأم!».

- يخلق من البصمات أربعين، قال بسخرية. لم يبتسم «فضل. فأدرك أنه أساء التعبير!

أوقف المقدم حزمة الأوراق على الطاولة، ضربها عدة مرات بخفة، وضبها، وطواها تحت إبطه. استقام من دون أن تزيغ عيناه عنه. قال بنبرة واثقة: «أحدٌ ما يكذب. سوف نعرف الحقيقة»

قطب الدكتور حاجبيه: لم أفهم!

طوى فضل جدعه، وأسنده بذراعه فوق الطاولة، وبصوت خفيض وناعم سأل الدكتور: أنت لا تموت؟!

أجابه الدكتور: «ماذا تقصد؟» استدار «فضل» خارجًا، والتفت، قبل أن يغادر: شقيقك التوأم، صحيح؟!

تساءل في عقله: «لا أموت! ماذا يعني بهذه العبارة؟»شدّه البنصر إلى مكان سحيق في الفرع.

اجتاحته لفحة هواء بارد. جمّدت مفاصله. كادت تمزقها من شدة الصعقة. بعد ثواني، تحول الزمهرير إلى سكاكين تسلخ لحمه عن عظامه. مارس الخنصر والبنصر كل شيء، خطوة خطوة، بانضباط ورتابة كأنهما يعملان في مصنع للنسيج. عشر مرات في مغطس الماء. صعقتان كهربائيتان. جولة من الركلات واللكمات.

أقبل «الإصبعان» مرة ثانية. علقه الضخم من ساقيه، وأنزله برويّةٍ. غمر رأسه لدقيقة كاملة في ماء عكر، ورفعه فشعر أنه ولد من موت محقق. فعل البنصر ذلك مرات عدة. وفي كل مرة يخرج فيها رأسه كان على بعد أشبار من الموت. وعندما شعر البنصر بالضجر. أخذه إلى قفص الكلب.

جرّاه إلى مكان آخر. وأدخلاه عنوه إلى قفص خشبي على مقاسه، تمامًا، بفراغات كبيرة، وأغلقا عليه بابًا لا يوصد إلا بإمساكه من الداخل. مفاصله ركيكة، وضربة واحدة قد تطيح به.

أتيا بشيء ينبح. نصف حصان أو أكبر. حاول أن يفلت من الوثاق، وأرخى الصغير له الحبل، فوثب ينهش الدكتور قبل أن يغلق باب القفص الخشبي على كامل جسده. شده العملاق للوراء، صاح: «مجنون؟! سيقتله. قال لنا «أدبّوه، ولا تقتلوه!»

ربطا الكلب في الزاوية، وأرخيا له حبلاً طويلاً. تركاه ورحلا. كوّم الدكتور جسمه في الصندوق، بالكاد يغلق بابه عليه. طوى ركبتيه إلى ذقنه، وطوّق رأسه بذراعه المتبقية. تكور ليقي جسده خزّات أسنان الكلب الحادة.

إذا تحرك سنتيمترًا واحدًا سينال منه ذلك الحيوان. بقي ساعة يشد باب القفص على نفسه ممسكًا به بأطراف أصابعه، وباليد الأخرى يجاهد لمنع جدران الصندوق من السقوط كلما اندفع الكلب المسعور نحوها بشراسة. يهدأ الكلب، وحين يأتي الدكتور على حركة يسترق بها نظرة خاطفة إليه. يراه. يعاود الإفلات نحوه.

بين الغرفة الحالكة، والتحقيق، والتعذيب، ورفقة الكلب، أسبوع من العذاب. انتظر فيه الموت. لم يفهم ما قاله جاره «فضل». لكنه خمّن.

سقط النظام

لوح الدكتور بذراعيه ترفرف في ظلام دامس. صعب أن يبحث عن جماد يتشبث به في هذا السواد القاتم. لأول مرة منذ أيام يعمّ الصمت المكان، تتخذ الأجسام أحجاماً أكبر منها، وتصبح الأشياء التافهة قيّمة. البلاط الذي يسير فوقه كل يوم، دون أن يدرك أنه لولا الأرض لما حلم البشر يوماً بالطيران.

الباب الحديدي، نتوءات الجدران. لو عاش دهراً ما فكر أنه سيقدر قيمة هذه المسلّمات. أي شيء يأخذ شكلاً أمسكه بيديه، صار له معنى. يلوذ به، يرخي فوقه قهره، ويرثي له ضعفه، ويسند إليه ألمه كي يرتاح من تعب لم يفوّته يوماً واحداً.

قضى عمره وحيدًا، وها هو شبحٌ يسبحُ في ضباب داكن. أكثر عزلة. متقوقعٌ في قعر بئر تحت رمل الشارع. ربما مزدحم بأقدام المشاة تقطعه إلى الرصيف الآخر، لعمل أو زيارة صديق أو مجرد نزهة في الهواء الطلق. أسفل مدرسة ابتدائية خالية من تلاميذها في الإجازة الصيفية، تنتظرهم يعودون إليها. يخبطون أرضيتها بقفزاتهم المرحة، ويهرولون عائدين إلى بيوتهم، يفجّرون ضحكاتهم البلهاء على عنكبوت ضل طريقه، يتأرجحون معلقين بقضبان معدنية، يتعربشون على أعمدة الإشارات المرورية. أو أسفل سوق خضار ينادي فيه باعته على بطيخهم ونعناعهم

وخيارهم، في دهاليزه مئات البشر يسيرون بحثاً عن بِقَالة اليوم، أو صحن سلطة.

صعدت مخيلته فوق، تسلقت طبقات صلبة، وتنفّست ضوء شمس الصيف اللاهبة، وتمعنت الحياة ببؤسها وقسوتها. لذيذة. يقايضها بدقيقة يفر بها من هذا الجحيم.

شعر الدكتور بجسده يتوحد مع العتمة، وأنه والهواء الرطب والحرارة العالية، والجدران والسقف والأرض المتوارية عن الأنظار قطعة واحدة. مكعبٌ مدفون من عجينة سوداء رخوة تتجمد على مهل وهو في جوفها، بعوضة من عصر حجري مأخوذة بصدمة الموت في قطعة من الكهرمان، وأي كهرمان!

الفرق أنه في حفرة يغمر قعرها ماء الصرف الصحي. ونام.

أيقظه حلم يزن ريشة. خفيف. يحط على وجنتيه برفق. لم يكن قصة مترابطة كي يتذكرها ويرويها لأحد. صور مبعثرة ومتداخلة كأوراق اللعب.

حلّق الحلم الجميل فوقه طيفاً ورديا. داعب جفنيه. وهدهده مثل رضيع. تركه، وانسل وشاحاً من حرير يطيّر ذيله في نسمات الفجر، ويختفي.

أفاق من ألم الليلة الماضية على فراغ زنزانته. عالمه المختصر في كوب من المرارة، ووخز الوحدة القاتلة.

رأى توهجاً ينبعث من الشق السفلي للباب. فضفض البصيص بتفاصيل شاحبة للحجرة الضيّقة، لأول مرة يرى جوفها الغامض

يحكي قصص من هم قبله.

أبصرت عيناه حشوة الحجرة بضوء خجول. تعرّت أمامه بوجهها الكئيب. شاهد باطنها المنسيّ، وكتابات تزاحم شروخ جدرانها. عبارات خطها نزلاء سابقون تباعًا كلما استأنسوا نورًا تملّص من جنازير الأقبية الدفينة.

كتابات نسخوها بأظافرهم فوق بعضها. سطورٌ تقطع أخرى. عُميٌ كتبوا مفرداتهم الأخيرة فوق شواهد قبورهم تحت طبقات من الكلس. «غداً. تشرق شمس أخرى»، أو شيء من هذا القبيل. «شبابيك مشرّعة ترفع حواجبها لضوء النهار». عبارات تصبّر أصحابها على الموت كمداً. استصعب فهم معانيها، لكنها كانت جميلة في نظره.

«سأموت واقفاً». عبارة من كلمتين قرأها تتخذ مكاناً قصيّاً عن الأخريات، أخذت لنفسها ربوة رفيعة. عبارة حطمت في داخله طبقة صلبة من الآجر، تشظت لتكشف عن كرامته التي أهدرها هؤلاء. شعر الدكتور بها تشرئب من بين الركام، تخرج يدها منتصبة. تخرق الجدران والأحجار، وتحرق الأخضر واليابس، وتقف مثل شجرة عتيقة وارفة تمعن في غرس نفسها في التراب لتظل واقفة.

فكر أن يكتب عبارته الخالدة في العدم. أمسك حصواته. واختار منبره. سابق الزمن، قد يأتي الخنصر والبنصر في أية لحظة. نظر مرتاباً من عيون تتلصّص. نبش ذاكرته عن شيء يعبّر عن مأساته، وظلم طاله، وكل التعذيب والاعتقال والموت الوشيك.

غمّس الحجر في صفحة الجدار، وكتب: «لن تنالوا من سيدكم أيها

الأنذال». لم يكملها: «ليست عبارة موفقة، ولا معبّرة بما يكفي»

عاد يشد الحجر الصغير، وتذكر عبارة كتبها الشيخ عزمي: «الإذعان لإعلان الردة» «ماذا أفعل؟! كلا لن أكتب شيئًا لا أعرف معناه»، قال في رأسه.

وقف بقامته ليختار أعلى فسحة على الجدار، فتكون عبارته عنوانًا لكل ما كُتب. تذكر مقدرته على كتابة التقارير. وإعجاب العقيد فوزي بها. فكر. حتى جاءه الإلهام. أخذ وضعيته وراح يحفر منتشيًا. هي كلمة واحدة تقول كل ما يريد، هي قصة حياته يجهلها الكثيرون. كتبها والحصاة تصطك بالطبقة الخشنة للحائط: «هَزُلَتْ!».

وضع علامة تعجب كبيرة بعدها. ابتعد قليلاً ليقرأها بما توفر له من ضوء. قرأها بصوت مرتفع. صرخ مرهقاً: «هَزُلَتْ!» نظر إليها مرارًا؛ ليتيقن أنها ما يريد. وأن من سيأتي بعده سيعرف أن من كان في الزنزانة، رجلٌ مهم، دارت عليه الدوائر. وأطاح به الأنذال والرعاع والجهلة. رمى الحصاة مزهوًا بما كتب.

«هَزُلَتْ. هَزُلَتْ.» راح يكررها في داخله راضياً. هزلت. «صحيح. هزلت!» نسي لماذا كتبها، استهوته الكلمة. همس: «ماذا تعني كلمة هَزُلَتْ. هل. نحفت؟». وأخذته الأحلام إلى أماكن جميلة. قادته إلى ذكريات عاشها حين كان رجلاً مهيوباً يخشاه الجميع. وها هو مهان في هذه الزنزانة، لا قيمة له، و«فضل». من تملقه، وعمل له ألف حساب. بات يحقق معه الآن، ويطرح عليه الأسئلة، ويأمر بتعذيبه.

نعم هَزُلَتْ!

أحسّ بالجوع. تساءل: لماذا لم يأتوا بالطعام حتى الآن؟! مع أنه أكل بائس، إلا أنه جائع. تعلقت عيناه بخيط الضوء أسفل الباب. شعر بذبذبات خفيفة تهزّ الجدران. جلبة مكتومة. صرخات خافتة تكسر حاجز الصمت. تأتي وتروح. تصنع ضجيجاً جماعياً لكائنات دقيقة، تصرخ معًا، فتخلق ضوضاء داخل صندوق مغلق، وتصمت فجأة، تعاود الصراخ الهامس. صوت هادر ينفلت من حدود الموت الساكن في عظام الغرفة العتيقة. «ماذا يحدث؟!. هل هذا شخص يتلقى ضربًا عنيفًا، وأغلقوا فمه كي لا يسمع العالم صراخه؟!».

زحف إلى أسفل الباب، ألصق أذنه بالشق الضيق. يسمعهم يصرخون، يتعالى الصوت، ويملأ المكان. ليس صراخاً إنه هتاف. «الشعب» لم يتبين ماذا يقولون. أبواب تصفق وطرقات عالية، حركات أقدام سريعة. لمح ظلاً يحجب ضوءه الخافت الوحيد. يركض في اتجاه، ويعود في الاتجاه الآخر. «أهرب أهرب.» قال الطيف لطيفٍ آخر.

كرر الهتاف نفسه. «الشعب يريد.» اختلطت العبارة في الضوضاء، ولا يعرف ما يريده الشعب. انفتحت أبواب، ودخلت نسمات باردة كأنها اندلقت لتملأ القبو. تسللت من الشق ولامست وجهه. فرض الصوت الهادر نفسه بقوة، وعلت الهتافات:

«الشعب يريد إسقاط النظام!» لم يفهم.

«الشعب يريد إسقاط النظام.».كيف؟!.

«الشعب يريد إسقاط النظام»لم يفهم؟

«الشعب يريد إسقاط النظام» ماذا يقولون؟. الشعب ماذا يريد؟.

يريد إسقاط النظام؟! «لماذا؟»، قال في داخله:»ماذا يحدث فوق؟ لماذا الجلبة. ولماذا يصرخ هؤلاء. الشعب يريد إسقاط النظام. عن أي نظام يتكلمون؟!».

أصغى أكثر؛ ليعرف ماذا يحصل. زادت الفوضى. انتقل وقعها إلى القبو. كانت الأرجل تتراكض في الممر. وأبواب كثيرة تُفتح. وتتعالى الصيحات «الشعب يريد إسقاط النظام» تتخللها ضحكات وفرح وتهليل.

دوّى باب زنزانته مرتطماً بالجدار، دخل في إثره مراهق يرتدي الجينز وقميص أزرق باهت، يعتمر طاقية أمالها على جنب جبهته، ومعه آخرون من نفس عمره. هكذا بكل بساطة. رأوا الدكتور منكفئًا في زاويته، يرتجف من الخوف، وينظر مرتابًا. خاف أن يقتلوه. «من هؤلاء الذين يقتحمون زنزانتي؟!» وأين الخنصر والبنصر؟!

أمسكه المراهق من كتفه. نصب رأسه فوقه مباشرة. وصرخ في وجهه: «سقط النظام. ماذا تفعل؟ هيا تعال معنا.» ردّ الدكتور: «ماذا؟ أي نظام؟!» هزه المراهق بعنف كأنه يعرفه منذ زمن. «أطحنا بالنظام. فرّ الرئيس بالطائرة. الشعب كله في الشارع منذ أسبوع، وأنت هنا لا تعرف شيئًا مما يدور حولك يا مسكين!».

وضع ذراعي الدكتور على كتفه. أخرجه يساعده رفاقه، غير مستوعب لما يجري حوله، قال الدكتور لحاله: «كيف؟ أي رئيس يسقط. لا يمكن أن يسقط. هذا رجل لا يسقط!».

اتكأ الدكتور على كتف الشباب، ومشى بمحاذاتهم إلى أن خرج

أخيراً من القبو، ذاب في حشد من الجموع المبتهجة. أخذته الأذرع إلى أعلى القبو. طوقه الشبان كأنه قطعة نفيسة من الذهب. حملوه على أعناقهم. أسندوه من كل اتجاه كي لا يسقط من الإعياء. وطافوا به في غرف الفرع، وكأنه أتى للتو في جولة ليتعرف على العاملين فيه!

حملوه مثل قائد عسكري مهيب. شدت قبضاتهم على ساقيه كي لا يقع. وضع آخرون أكفهم على ظهره. لم يدر أكانوا يواسونه أم يتباركون به.

وفي الجهة القريبة من مكتب الاستقبال، عند مدخل الفرع الشمالي. رأى «فضل» على الأرض؛ مضرّجًا بدمائه. وحوله ثلاثة أو أربعة شبان يدوسونه بالأقدام، ويرمونه بقطع خشبية من أثاث محطم.

نظر ورفع سبابته نحو الدكتور كأنه أراد أن يشي به عندهم، كي يأخذ نصيبه من الضرب. تأمله الدكتور، وجسده يهتز بقوة كأنه امتطى حصانًا جامحًا في البريّة. «قل ما تشاء أيها البائس، وانظر حولك. أنت ضابط مخابرات، وأنا معتقل سياسي، سيسمعون كلاما مختلفا من الآن؟».

شقّ الخنصر والبنصر طريقيهما بصعوبة بين الحشود. أرادا الهرب. رآه ذلك الضخم. وتوسله بعينيه الحمراوين كأنه كان يقول: «لا تخبرهم أرجوك. سامحني على ما فعلته بك!». شدّ الدكتور ياقة من يحمله، وصرخ به: «أمسكوا هذين المجرمين، إنهما من الجهاز، إنهما سفّاحان».

سمع العملاق صراخ الدكتور، وشاهد الغضب في وجهه. فأبعد الناس من حوله، بسعار، ليفتح له ولصديقه الصغير طريقاً آمناً

للخروج. أثار بهياجه الجميع، واجتاحتهما موجة بشرية عارمة. تكدّس الجميع حولهما، قاومهم فاستفزهم أكثر، وزاد عدد المهاجمين. وخفت صدى صياحهما تحت غطاء آدمي مجنون. لمح الدكتور قبضات تطير في الهواء، وتسقط قذائف على جسديهما. وشاهد سكينًا تهوي لتصعد حمراء تقطر دمًا. حينها تذوق طعم الثورة، وصار يهتف مع المتظاهرين. «أنا أريد إسقاط النظام»، ومن حوله يرددون: « الشعب يريد إسقاط النظام». خرج من الجهاز فوق الأكتاف. معتقلاً سياسياً، وأبصار الجماهير، وكاميرات الفضائيات معلقة به!

انحدر السيل البشري من مبنى الفرع، واتحد ببحر من الرؤوس في المظاهرة الكبيرة. تأمل المشهد، من فوق: رجال ونساء وشيوخ وأطفال. انطلقت الأذرع سنابل قمح تتمايل قبضاتها وترقص مع الشعارات. وكان يهتز مع أهازيجهم. حملوه وجابوا به نصف المدينة. ارتقى فوق أعناقهم دليلاً بشرياً دامغاً على قمع النظام. الجو قائظ، وكان يعد الساعات ليعود إلى بيته من شدة الحر!

ولما دنت المظاهرة من شقته، لاحت له الفرصة للنزول، كان خائفاً أن يشارك في مظاهرة، طريقة لم يتعودها، ولم يتقبلها أبدًا استأذن من يحمله؛ كي يكمل المسيرة على الأقدام، اعتذر له، وشكره بأدب على التعب الذي تكبده في حمله طوال الطريق.

ترجلّ، ورفع ذراعه معهم يتمتم بعبارات يرددونها. نظر إليهم، وبادلهم حماسًا مصطنعًا. شدّ قبضته، ورفعها عاليًا، وقال: «نعم نعم. أكملوا يا أبطال!»، واستدار إلى زقاق يقوده مباشرة إلى شقته. كسر

بابها، دخل، واستلقى على فراشه المغبّر، وراح في غفوة طويلة. كان مرهقًا.

استيقظ على صباحٍ جديد في مدينة تحتفل بسقوط النظام، شعر بالارتياح والريبة، لا يدري هل يفرح أم يحزن. تخلص من التعذيب والموت وشبح الملاحقة الأمنية. لكن الدنيا لن تكون أبداً كما خبرها، انتابته الحيرة لما يجب عليه فعله في الأيام المقبلة.

لم يعتد فكرة أن يقول الشعب ما يريد، ويتصرف كما يحلو له.

خرج ليتنفس بلا خوف. ها هو ذا في حيّه القديم «من يريد أن يشي بي ليفعل! ما أجمل الحرية!»، قال في داخله، ومضى يبحث عن اسمه في سجلات الدولة الجديدة.

***

«بالطبع لا أقصد الشعب كما تعتقدان، للشعب تقديره واحترامه! أعني، لا يمكننا أن نفتح الباب لكل من هبّ ودبّ. هناك من لهم معرفة واسعة في إدارة الدولة، وهناك من يبيعون الكوسا والباذنجان. والدولة ليست سوقاً للخضار، بالأمس كان لي احترامي. قبل أن يدخل المستنسخ حياتي ويفسدها، حتى هو استفاد من النظام البائد. الآن سيصبح لبائع المرطبات أسفل شقتي قيمة ورأيٌ في السياسة.» تابع الوزير للنائب العام: «وما عليّ من ذلك كله. كنت قد فقدت كل شيء»:

مرت سنوات عديدة لحظة سقط النظام الذي يعرفه. كبر عندما تذوق طعم الحرية أخيرًا. لكنه شعر أنه ولد من جديد، وأن صحيفته نظفت أخيراً، ومن دون منغّصات. وصار بإمكانه مزاولة عمله، واستعادة حياته، ربما ليس كلها، على الأقل ما تبقى منها. أو بما يكفي ليقضي أيامه بهدوء.

وكان يجب أن يستعيد بطاقته الشخصية، ليؤكد للمجتمع أنه هو وليس أحد غيره. كانت دائرة الأحوال الشخصية متساهلة. فوضوية، بعض الشيء، لكنها متساهلة. جلبة في كل مكان ولا طوابير أو أرقام، والصراخ في كل زاوية، والإضرابات والاعتصامات كانت تعطل معظم أيام العمل. لم يناقشه الموظف، ولم يسأله عن سبب فقدان بطاقته.

كان الموظفون حريصين على تلبية طلبات المواطنين الغاضبين لأي شيء. لم يكن هناك مراجعة أمنية، أو حسن سير وسلوك، و»من يجرؤ

على طلب ذلك من شعب أسقط لتوه النظام؟!».

ذرع المدينة يبحث عن عمل، الأوضاع بائسة، ولا وقت في هذه الفوضى لبيع أو شراء. وهو في أمسّ الحاجة لأن يكسب بعض المال.

على كل حال، طالما لا يكف الناس عن الأكل، فقد عمل محاسبًا في مطعم متواضع في وسط البلد، المطعم نفسه الذي دعاه إليه رئيس قسم الحسابات في الجامعة. لم يفكر مرتين في العرض، قبله على الفور، لا مشكلة كبيرة. عاش أيامًا أكثر قتامة.

***

جواز سفر

انحنى الوزير؛ يهرش قدمه أسفل حذائه البيرلوتي، وقال للنائب العام بعفوية، كأنه يجلس في مقهى: «بصراحة كان مطعماً جيداً كما قال ذلك الواشي، لا بأس به، الطعام كان لذيذاً، أجاد أبو جمال الطباخ طهي صينية الدجاج بالبطاطا!».

بين شقته والمطعم. يأكل وجبة، ويوفر الثانية لليوم التالي. مر الوقت سلسًا. البلد كله تغير. صار الناس أكثر جرأة.

كثرت الشجارات والمظاهرات، لأتفه الأسباب. لا يقف طابور أمام مخبز إلا وينتهي بمشادة لأن أحدهم تجاوز دوره. ينتقدون من يشاءون. وقتما يشاءون، الكل حانق على الأوضاع، والجميع يريد أن تحل مشاكله الآن وليس غداً.

سقطت هيبة الدولة. وتزعزع الأمن. لأول مرة يرى رجال الشرطة يبررون أفعالهم لمن أسماهم الدّهماء. يتحلون بالأدب، ويجاملون كل من يرونه، يستأذنون في دخولهم وخروجهم. الأنكى أنهم يتحاشون الناس، يختبئون من عيونهم . قال في عقله: «لا تليق بهم هذه اللطافة».

التفت الوزير إلى النائب العام، وهو يسرد وقائع ما بعد الثورة.

وقال معدلاً من ربطة عنقه، وواضعاً ساقه فوق الأخرى: «سائق سيارة الأجرة. بائع الخضار التافه، النساء الجاهلات. صار الكل يتحدث في السياسة. ينظّر. ويبدي رأيه. تخيلا. هؤلاء الجهلة لهم آراء في عمل الحكومة. بصراحة، النظام الأول كان له وقاره!».

تعمد أن يوجّه الكلام إلى مرجي باشا «لا تؤاخذني، لكن كل ما يفعله هؤلاء هو اصطناع الفوضى لا أكثر! الصحافة تتكلم بوقاحة. تنتقد هذا وذاك. تكشف أسرار النظام البائد. بدأت الرؤوس تتهاوى الواحد تلو الآخر. والمحاكم مزدحمة بالمتهمين. يلاحقون «الحرس القديم» وأزلام النظام. لا أدري لكن شعوراً غريباً ألمّ بي. قلقٌ قديم استعاد مكانه الفارغ في داخلي.».

أجابه الباشا بشيء من السأم. «هذه مصيبتنا معك!»

تجاهل الوزير ردّ الباشا، وواصل سرد أقواله بفرحة مندّسة بين كلماته:

«أحيانا أحمد الله أن النظام البائد اعتقلني قبل الثورة بأسابيع. لو لم يحدث ذلك، ربما دفعت ثمناً باهظاً. لم يرحموا أحداً. ومن طالته شبهة صغيرة جُرجر إلى محاكم الثورة. أنا ابن الثورة. لكن لم أدر لماذا كلما كان يقرع أحدهم جرس الباب تنتابني الرغبة في دخول الحمّام؟!».

جلّ ما أراده حينها أن ينام من دون كوابيس. وألا يخيفه منظر باب

شقته الموصد. أن يمشي في الشارع بغير اكتراث لنظرات أهل الحيّ.

تجاهل الدكتور نوري طلبه بالعودة إلى الجامعة. الشيء نفسه في الجامعات الأخرى. قال في داخله: «أنا أسدد دينًا سابقًا. لا عيش لي في هذا البلد.». كان شاقًا أن يحصل على تأشيرة ليسافر من دون عودة. السفارات كانت مرتابة من المهاجرين في بلد تعمّه الفوضى. ولم يملك المال الكافي ليسافر بعيداً.

باع شقته بثمن بخس بعد أن عمّ الكساد سوق العقارات. وضبّ حقيبته للمرة الثانية في شهرين. لم يكن لديه الكثير ليضعه في الحقيبة. تذكرة، وبعض الملابس. كفاه جواز سفره، فقد عادت إليه هويته كما أراد، لا رجل سردين، ولا فضل، ولا أشباح الماضي تلاحقه.

***

«لم يتسن لي الوقت كي أودع شقتي العزيزة على قلبي.».

نظر الوزير في عيون الحاضرين في غرفة التحقيق، بمن فيهم الموظف الخجول. مستعطفاً ما في قلوبهم من رحمة.

بعد ساعات مضنية من الاستماع إلى أقواله في قضية الانتحال، ذكر فيها الوزير تفاصيل لم يعرفها مرجي باشا، فضّل أن يبوح لهم بما دار معه حين اعتقله النظام الجديد، بجريرة ما فعله رجل السردين:

قرع أحدهم الباب. حان الموعد ليأتي صاحبها الجديد، ويستلم مفاتيحها. لم يجزع ككل مرة، ربما لأنه كان يستعد للرحيل. جواز سفره يحمل صورته واسمه في جيبه، وحقيبته في يده. ومعه المال الكافي لأن يسافر بعيدًا. ومهما يكن في الخارج، لن يسلبه أكثر مما خسره.

فتح الباب. فوجئ برجلين مهندمين في مقتبل العمر، يقفان بوقار، بحلل داكنة، كأنهما من رجال العلاقات العامة. استفهما عن اسمه. أجابهما بكل ثقة: «نعم أنا، هل من خدمة؟» شاهدا الحقيبة. سألاه عنها. «ملابسي. أنا مسافر.»

ابتسم أحدهما، وأمره أن يجلبها معه إلى النيابة العامة. «ستحتاجها!» قال وهو يدوّر ميدالية مفاتيح في يده، وجوّاله في يده الأخرى. «المسألة ستطول.». قال الآخر. «أية مسألة؟».

عرّفا عن نفسيهما. من إدارة «ملاحقة عناصر الحزب الحاكم المنحل». جهاز أمني جديد أنتجته الثورة، لتنظيف الدولة من الحرس القديم، وشرّعته الحكومة المؤقتة، تحت بند قانون جديد يتيح للسلطة تجاوز

الإجراءات القانونية لملاحقة من يشتبه بتعاملهم مع النظام البائد.

«وما دخلي؟! أنا معتقل سياسي، من ضحايا النظام البائد».

شبك الوزير أصابعه وقال: الحق يقال: كانا مهذبين!

«أرجوك أن تأتي بهدوء. هناك سوف تفهم كل شيء»، لم يرتعد في البداية. لكن عندما ركب السيارة. ازداد خفقان قلبه. عاد له ذلك الرعب من سيارتهما السوداء أمام البناية. لم يبدُ على الرجلين ملامح

السفاحين كما كان المنظر دائماً، ولم يبرزا كعبي مسدسيهما خلف ظهريهما. بل كانا أنيقين ولبقين.

في مكتب التحقيق. جلس أربعة رجال خلف طاولة كبيرة في خط أفقي. كأنها محكمة تاريخية. تساءل الدكتور: «إذا كان ما اقترفه يتطلب حضور هؤلاء المحققين، فماذا عن الرئيس المخلوع؟!» لم يثبت أحد الموظفين في مكانه دقيقة، يذهب ويعود. يحمل أوراقاً وملفات، ولا يهدأ. كل دقيقة يناديه أحدهم، فيفر من مكانه وسط المجموعة. قعد الدكتور قدّام لجنة أو ما شابه.

قرأ خمسيني، ظهر أنه رئيسهم، ورقة أرقدها على الطاولة. سرد تفاصيل علاقة الدكتور القديمة بالجهاز، فتح حقيبته المنصوبة على الطاولة، تناول ملفاً فرده أمام المجموعة. قال إنها تقارير تثبت تجاوزات اقترفها «رجل السردين» حين استلم موقعه القيادي في الحزب الحاكم المنحل. تحدث عن علاقته برؤوس النظام في تلك الفترة، ومشاركته في أعمال القمع ضد تظاهرات حصلت قبل سنوات.

أدرك الدكتور أن الرجل يقصد المستنسخ. «لست أنا.» تساءل في سره: كيف يقنعهم بأن من يتكلمون عنه هو رجل آخر. «أنا كنت مجرد مخبر وضيع إن شئتم!».

أوضح لهم أن ذلك كله من الماضي، وأن الجهاز لاحقه واعتقله وعذبه، حين انقلب عليه. «مثلكم تماماً. خرجت مع الثورة. وهناك المئات يشهدون على ذلك.».

أجابه أحدهم: «لا يوجد ما يثبت أنك كنت معتقلاً.».

دللت كل الأوراق على منصبه ضمن الدائرة المصغّرة للدولة، وتواطئه مع النظام السابق. صحيح أن الفوضى أمّنت له جواز سفر، لكنها ضيّعت أوراقاً أخرى تثبت اعتقاله، وأطاحت به في النهاية.

قال لهم: «ما بالكم يا جماعة، أنا معتقل. اسألوا الثوار. اسألوا الزنزانة التي حفرت على جدرانها بأظافري كلمات. كلمات قوية ومعبّرة. ما بالكم لا تميزون بين الشرفاء والخونة. خسرت وظيفتي، وبعت الفول المسلوق المتبّل على الأرصفة، ونمت في الشوارع، وهمت مشرّدًا بين مدينة وقرية هربًا من خفافيش الليل. هل هذا شكل رجل تنفّع من النظام السابق؟. شقتي بعتها لآكل بثمنها بعد أن خسرت كل شيء. وكل ما تركته طبق وملعقة وفراش لأنام عليه. ليس عندي فرشاة أسنان «.

تملكته الحماسة أكثر، نهض، وسقط الكرسي من ورائه مرتطماً بالأرض، ليحدث صوتاً صاخباً أربك الموجودين، رفع ذراعه مثل خطيب مفوّه. «هكذا تعاملون الشرفاء. لا تجعلوا الثورة تحرق كل شيء، أنا أكاديمي وابن عائلة محترمة، ومن الواضح أنكم أبناء عائلات محترمة أيضاً. خدمت البلد. وعندما أدركت أن النظام ينهب أموال الشعب انتفضت ضده حتى قبل أن تفكروا أنتم في الوقوف في وجهه، مع احترامي لكم جميعاً، وكلكم سادة أفاضل. أجلّكم وأحترمكم. وبالتأكيد تفهمون الأصول. أنا وطني أحب الدولة.»

أراد أن يقول إنه ربما كتب بعض التقارير في فترة من حياته. لكن من يتحدثون عنه. رجل السردين «النتن». يرفض أن يتركه في حاله، حتى

حين تنقلب الدنيا رأسًا على عقب.

فشل في إقناعهم ببراءته رغم خطبته العصماء. شعر بأن ثمة مؤامرة تحاك ضده، وأن العالم كله يناصبه العداء. تجمد أمام سيل من الأسئلة. كان بحوزتهم العديد من الوثائق، معظمها يخصّ المستنسخ، ولا يعرف عنها شيئاً، أخفق في الرد. اضطرب. ولم يجد سوى عبارة واحدة يجيب بها عن كل سؤال. والعرق يتصبب منه. «أريد محاميا. لن أتكلم إلا بحضرة محامي. نحن اليوم في بلد ديمقراطي. أريد محامي!».

اقتادوه خارجاً. أصابه الذهول. «هل يعقل؟ أن أكون مدانًا في العهد البائد الذي خدمته بإخلاص، ومتهمًا في دولة تدّعي الديمقراطية. أين العدل في ذلك؟».

استيقظ من شروده على واقع جديد يصرخ فيما كان الحاجب يقفل الباب. «دبّرت محاولة لاغتيال الرئيس المخلوع، أنا أول من فكر في ذلك، أتحداكم جميعاً.»، أخرجوه فيما كان يردد بانفعال شديد: «أنا الوحيد الذي تجرأ على الإطاحة به قبل حتى أن تفكروا في ثورتكم هذه!».

استسلم لهم، لم يكن بمقدوره غير ذلك. سلّم أغراضه لعريف الأمانات. ومشى مع ثلاثة من رجال الشرطة إلى الحجز في الطابق الأرضي. أخبره عسكري برتبة عريف، تعمد أن يرافقه للأسفل، أن بمقدوره تكليف محام، دسّ ورقة في جيبه.

انتبه الدكتور لوجود العريف؛ الذي طلب من الرجلين الآخرين التنحي جانباً لبرهة. كان الدكتور خارجاً للتو من صدمة الاعتقال

للمرة الثانية، همس في أذنه: «هل تعرف «فضل»؟» ارتعب الدكتور من مجرد ذكر اسمه. تلعثم. كيف يرد؟ في النهاية لم يجد بُداً من أن يقول نعم. «لكن لماذا؟». مال عليه ثانية: «هو من أرشدهم إليك، كشف لهم وثائق وأدلة، وتحدث عن أشياء تتعلق بمنصبك السابق في الدولة، والحزب.».

عرف الدكتور ساعة رأى رجلاً نسخة طبق الأصل عنه في شقته قبل سنوات، أن حياته لن تكون كما عهدها. «الرجل لعنة لا تنتهي، حاضر أم غائب».

كيف يخرج رجل من ضلوعه كأنه هو، ويناصبه العداء، ويحيك له المكائد، دون أن يكلف نفسه عناء القيام بها، هكذا مجرد وجوده في الدنيا لعنة لا تنتهي؟!. تذكر حينها عبارة «فضل»: «لا تموت؟» قال: «هل قتلوه فعلا؟! يا ليتهم فعلوا!».

فتح العريف باب الحجز، وطلب منه الدخول قبل أن يبدأ حديثاً قصيراً مع رجل هرع إليه حين رآه. انسل الدكتور حيث سيقضي الوقت برفقة نزلاء لا يميّز معظمهم. قدّر أنه رأى وجوه بعضهم في الأخبار. تعرف على هوية رجلين أو ثلاثة منهم. وآخر لم يتبينه ، يتذكر ما فعله جيداً حين دخل إلى المهجع، لأنه ظلّ يحملق في وجه الدكتور برعب شديد. جَفَلَ، وغاصت حدقتاه في بياضهما، وأخذ يردد «أنت. هذا أنت؟!» تجاهله، واسترق نظرة إليه. كان على وضعيته تلك حتى غادر السجن. لما سأل عنه، قالوا إنه فقد عقله منذ اليوم الذي سقط فيه النظام.

وقف شخص مهيب الطلّة؛ مساعد وزير المالية في النظام السابق. أقبل على الدكتور بمشية متأنية. وبكياسة تليق بابن ذوات. فتح ذراعيه يردد كلمتين «يا أهلاً. يا أهلاً». صافحه وناداه: «يا دكتور».

«يااه. منذ زمن لم ينادني أحد بهذا اللقب.»، قال الدكتور في سره، أظهر له مساعد الوزير احتراماً كبيراً. وألحّ عليه أن يجلس حده. كان له أتباع كثر. رجال يعملون على خدمته. ناوله أحد خدّامه علبة سجائر. عرض على الدكتور واحدة، أخذها مجاملة، لكنه لم يشعلها. صاح المسؤول: «يا ولد. أعدّ لنا كوبين من اليانسون».

ضرب جرس الهاتف. انتشل النائب العام السماعة. ورفع كفه مطالباً الوزير أن يوقف أقواله برهة حتى يكمل المكالمة. همهم النائب العام متعمداً حتى لا يفهم الموجودون صلب الحديث، أو كي يُشعر من على الطرف الآخر بأنه منشغل.

أقفل السمّاعة، وأعار الوزير جلّ اهتمامه. قال: «هل تتذكر أحداً آخر في الحجز غير مساعد الوزير السابق؟».

تنبه مرجي باشا للسؤال. وأضاف: «نعم بالفعل، ما قاله سعادة النائب مهم جداً. قد يكون أحدهم وراء الجلبة الحاصلة اليوم. بالله تذكر يا معالي الوزير».

فرك الوزير رأسه محاولاً أن يخمنّ ولو اسماً واحداً. لكنه استدرك قائلاً: «المساعد كان الأهم من بينهم، أما الآخرون فلم يكونوا ذوي شأن، على الأقل بالنسبة لي».

تنهد النائب العام: «على العموم. ماذا جرى بعد ذلك؟».
تنقل الوزير بوجهه بين الرجلين، يعصر ذاكرته ليقول شيئاً قد ينفعه في قضيته:

(شربنا اليانسون، وخاض الجميع في أحاديث طويلة عن البلد اليوم، والأمس، وكيف ستؤول. حديث أكابر، جلس مسؤولون سابقون نافذون في العهد البائد، تحدثوا عن مؤامرات خارجية، وخيانات حصلت. أناس تفهم في السياسة. تكلموا عن الأوضاع الحالية، وفوضى في جميع الوزارات. وحالات تصفية، وملاحقات كيدية. وهمس أحدهم بأنهم لن يسمحوا بأن تمر الأمور هكذا بكل بساطة. وسوف ينتظرون إلى أن يحين الوقت المناسب ليحرقوا البلد على من فيها.

أبدى مساعد وزير المالية إعجابه برؤيتي حول مستقبل الثورة، حين قلت: أليست ثورة جياع؟!. إذن حين يشبعون، سيعرفون قيمتنا! قلت أيضا: إن النظام السابق سيعود لا محالة. إن لم يكن بالقوة فعبر الانتخابات، لأن الناس يريدون أناسا خبراء في الحكم، يعرفون دهاليز الدولة، والرعاع لن يعرفوا كيف يديرونها. وافقني. أحبني الرجل لأن آرائي لاقت هوى عنده. وطلب مني البقاء حدّه. قلت: «أين سأذهب يا حسرة؟!» ضحك، وضحكت معه، وضحك من كان يصغي إلى حديثنا المشوّق.

وجدت الفرصة سانحة لأتحدث عن نفسي. أخذنا الكلام فسردت

لهم ما أعرفه من أسرار رئيس الجامعة؛ الدكتور نوري، واختلاسه أموال مشروع كلية الطب، وكيف أنه لا يزال يحتفظ بمنصبه حتى اللحظة رغم الثورة. وقلت مستهجنًا: أليس هذا دليلاً على تعاونه مع الثوار! أومأ الجميع بالموافقة، باستثناء واحد منهم، سألني عمن أتكلم. أخبرته: «الدكتور نوري». نظر لنزيل بقربه، وسأله «هل كان هذا الذي يتحدث عنه الأخ، قيادياً في الحزب؟!» قال له الآخر: «لا» فعاود الأول يقول: «لماذا يخبرنا عنه كل تلك القصص.»، أجابه الثاني: «لا أعرف!»).

دقّ مرجي باشا سطح المكتب بقبضته، فسكت الوزير عن الكلام. وتدخل النائب العام بسرعة: «أرجوك أوجز يا معالي الوزير. هذه تفاصيل حسّاسة، ونريد أن نعرف المهم منها.». أجاب الوزير: «حسناً. فهمت فهمت.»، اختطف نظرة قلقة إلى الباشا، قبل أن يعود إلى يومياته في سجن الثورة:

اقترب مساعد وزير المالية منه أكثر، أراد أن يسأله شيئًا بينهما، همسًا:

– ماذا جرى لك؟ هل صحيح قصة المؤامرة على فخامة الرئيس، ومحاولة اغتياله، الكل في الحزب كان يتكلم عنك. وأنت اختفيت سنوات بعد ذلك، أقلقتنا عليك يا رجل؟!

ارتبك الدكتور بسؤاله المباغت، وساوره شك أن يعرف مساعد وزير المالية السابق، أكثر مما يعرفه هو، فكل ما لديه من معلومات،

هو ما دبّره لرجل السردين فقط، أما كيف سارت الأمور بعد ذلك، فلا دراية له بها، وخاف أن يقول كلمة فيفتضح أمره، ويقلب موازين اللعبة!!

تابع مساعد الوزير: «أنا لم أصدق الرواية. أنت معروف بإخلاصك لفخامته».

تنحنح الدكتور. تفحص تعابير المساعد المشدودة. لم يعرف ماذا يقول. الظرف سيءٌ للغاية. ولا يدري مع من ستميل الكفة. فكل كلمة محسوبة. قال في رأسه: يجب أن أقتصد شيئًا لمن يمسكون بزمام الأمور في الخارج. على أي حال، أنا مع مصلحتي، مع كل الاحترام والتقدير للرئيس المخلوع. كما أني لا أضمن من في السجن. ربما كان بينهم عملاء مزدوجون.».

قال الوزير لمرجي باشا والنائب العام: «أعتقد أنكما تتفقان معي في ذلك، لا يوجد أصدقاء في السياسة أليس كذلك؟!»:

بعد أن تأكد الدكتور أن الجميع مشغولون بأحاديث جانبية، قرّب فمه من أذن المساعد المُزْغِبة والكبيرة.

– في الحقيقة أنا طوال حياتي مخلص للنظام، وبخاصة فخامته. أنا رجل وطني كما تعرف. هذه مكيدة. وأعرف جيدًا من يقف وراءها. إنه رجل قذر، لكنه خطير، كان يحسدني على نجاحاتي. شعر بالغيرة من قربي من القيادة.

– من هو الرجل، هل كان معنا في القيادة، أم مجرد عضو في الحزب؟!

- لا. لا. لم يكن قيادياً في الحزب، ولا حتى عضواً. أشهد، كلهم شرفاء. هو رجل عادي لكنّه ماكر.

سكت الدكتور برهة، فكر؛ من الشخص المناسب كي يلصق به هذه التهمة باستثنائه هو؟!

وتابع:

- بصراحة، هو قيادي في السلك!

- في السلك؟ أي سلك؟!

- في الجهاز. إنه أحد الرجال النافذين غير المعروفين للعامة، وحتى لقيادة الحزب نفسها. رجل كان يعتمد عليه فخامته في كل صغيرة وكبيرة. علاقته مباشرة مع الرئيس. نعم مباشرة.

- حتى لا أقلل من شأنه، هو رجل عبقري، وقدم الكثير من الخدمات للنظام. ولو وافق، وعملنا سويّة، لربما لم تندلع الثورة. لكنه قال لي مرة، إن السفينة لا يقودها إلا ربّان واحد. بصراحة، أنا أيضا كنت مستشاراً للرئيس، وهو ما خلق لي الأعداء، ومن بينهم هذا الرجل، أنت لا تعرفه إنه داهية!

- أعرف أنك كنت نافذًا، لكن متى كنت مستشارًا لفخامته؟!

- نعم كنت. المهم، تأكدتُ أن ذلك الرجل لا يريدني أن أكون من الحاشية، فكاد لي المكائد. وبصراحة فشلت في تكذيب اتهاماته؛ كانت متقنة جدًا. هو ذكي جدًا، وكان له الكثير من الأعوان.

- واضحٌ أنكَ معجبٌ بالرجل الذي تآمر عليك! لكن لم تجب.

من هو هذا الرجل المهم جدًا، والذي لم يسمع به أحد في الحزب؟!

- لا أستطيع أن أبوح باسمه، ولو ذكرته لك لن تعرفه.

- ولماذا "لن" أعرفه؟!

امتعض مساعد وزير المالية من ردّ الدكتور. تغيرت ملامح وجهه، فجأة. فقال، بضجر:

– المهم هل كان لك دور في المؤامرة على الرئيس، أم لا؟

هزّ الدكتور رأسه، نافيًا: طبعا لا يا سعادة المساعد، ثم ابتسم، ورشف من كوب اليانسون.

عاد المساعد يوشوشه: لكن العريف في الخارج أخبر أحد رجالنا بأنك كنتَ تصرخ أثناء التحقيق، وتقول إنك الوحيد الذي تجرأ على مواجهة الرئيس، وأنَّكَ حاولتَ اغتيالَه!

حدّق الدكتور مرتبكاً. لم يعرف بماذا يرد. قال: كذبة بيضاء حتى أتقي شرهم لا أكثر! وأتبع ما قاله بضحكة قصيرة. وربت بكفه على ساق المساعد. "مزاح. مزاح يا رجل، لا أكثر!"

زاد وجه المساعد تجهما. رجع إلى الوراء. وأخذ وضعية أكثر استرخاءً؛ كأنه انتهى من الحديث معه. لم يستوعب الدكتور لماذا بدأ المساعد يختصر إجاباته حين سأله إن كان يعرف ما سيجري في الأيام المقبلة، وإن كان له معارف في الخارج يمكن أن يساعدوه في الخروج من السجن.

شرع المساعد في توجيه كلامه لآخرين. أشعل سيجارة أخرى. رفع ركبته إلى الأعلى، ونصب ذراعه عليها؛ لتحجب وجه الدكتور عنه. مع

مرور الوقت تجاهله، تمامًا، كأنه غير موجود.

بعد نصف ساعة كان الدكتور يحدث نفسه. وجد أنه وحيد في زنزانة كبيرة، مزدحمة بعملاء النظام السابق. صار يفكر: مع من يقف. مع هؤلاء الرازحين في السجون. هل انتهت صلاحيتهم، ولم يعد لهم لزوم، أم مع من يحكمون البلد في الخارج؟! هل ينتظر ليرى أين ستؤول الأوضاع؟! أم يحسم أمره من الآن.

كان أمامه خياران: أن يصرّ على أنه دبر محاولة الاغتيال؛ فقد يشفع له ذلك عند من في الخارج، أو يلوذ بالصمت؛ ويتركهم يعتقدون أنه من أزلام النظام السابق. أدخل يده في جيبه، وتناول ورقة دسّها العريف. كان بها رقم محامٍ، أخبره عنه.

مرجي باشا

قرر الدكتور أن يطلب المحامي، علّ ذلك يساعده في الخلاص من هذه المحنة. لم يكن لديه مال ليدفع له. ليرثي حاله، قال: «أجرب حظي!

ساقه العريف؛ بأدب شديد إلى غرفة شبه خالية من الأثاث، باستثناء طاولة وكرسيين، قال إنها مخصصة للقائه مع المحامي. بعد لحظات جاء رجل متأنق، وجلس.

- هل حضرتك المحامي؟! سأله.

بدا أن المحامي يعرف الدكتور كذلك من فترة سابقة. سأله المحامي عن ظروف اعتقاله. وإن كانوا يسيئون معاملته. قال الدكتور: هل التقينا قبل؟ ردّ المحامي من فوره: ولو يا دكتور؛ وهل أنسى أفضالك عليّ، واضح أن كثرة المشاغل، والظروف الحالية أنستك الأيام الخوالي!

تكلم المحامي كثيراً عن أحوال البلد، وأن بها حقوق إنسان، وصحافة، وإعلاميون يجوبون الشوارع؛ يسجلون كل صغيرة وكبيرة، ومراسلون أجانب؛ يثيرون رعب النظام الجديد أكثر من صحافتنا المحلية"، وموظفو السفارات الغربية. كلهم ينتظرون خطأً؛ لينشروا غسيلهم في الإعلام، والمحافل الدولية.

غسيل من؟ سأل الدكتور. أجاب المحامي، بصوت خفيض: هؤلاء، وأشار خارجًا. مالك يا دكتور؟!

فرج المحامي شفتيه عن أسنان صفراء، وقال: أترافع الآن عن عشرين مسؤولاً سابقين، كلهم بمقام سعادتك.

سعادتي؟! تعجب الدكتور من أسلوب كلامه المحترم. ومساعد وزير المالية. والنزلاء. والعريف. يعتقدون أنه المستنسخ.

وضع المحامي حقيبته الجلدية على الطاولة. قال إنها جلسة تمهيدية، لا أكثر. قرّب كرسيه، وأردف: "أمهلني أسبوعًا واحدًا. تحمّل، واصبر معي، أجابه الدكتور بشيء من الثقة؛ متقمصاً دور رجل السردين!

- أسبوع، لا لا، كثير جدًا. لا أتحمل البقاء في السجن كل هذه المدة.

- كي أتمكن من دراسة القضية!

- ومستحقاتك؟

أعاد أسنانه الصفراء إلى الواجهة، وقال متفاخرًا:

- باهظة!

- وطريقة الدفع؟

- ومن طلب منك أن تدفع الآن، يا دكتور؟

- هذا حقك، وهل ستدافع عني بالمجان؟

حمل المحامي حقيبته الجلدية السوداء، ومد يده مصافحًا، وابتسم للمرة الثالثة. وقبل أن يغادر، جاء العريف ليرافق الدكتور إلى الحجز. سمعه من بعيد، يصيح: لا تقلق؛ كل شيء على ما يرام. أسبوع. قال الدكتور، متهكماً: مع ابتسامتك هذه؟ أشك!

بعد سبعة أيام، زاره مجددًا. كان مضطربًا؛ على غير ما جاء به أول مرة. جلس، دون أن ينظر في عيني الدكتور. فرك كفيه. وفتح حقيبة

جلدية مكتنزة بالملفات. أخرج رزمة من الأوراق. ركّز بصره على الدكتور، قائلًا: "توصلت إلى هذه بشق الأنفس. ولا أجد لها تفسيراً." استوضح الدكتور: ماذا تقصد بالضبط؟!

شرح المحامي، تفصيلاً: اعتقال رجل السردين، ومدة الاعتقال، والتهم، وجلسات التحقيق. وفي كل مرة يسكت فيها متعذّراً بأنه يسرد أموراً يعرفها مسبقًا، باعتباره المستنسخ، يطلب منه الدكتور المتابعة. "كلا. كلا، على العكس. أنا نسيت، فكما تعرف "اعتقال وتعذيب!".

صمت المحامي، ورفع تلك الأوراق: لم يصدروا بحقك حكمًا. وهذه الورقة، تقول: إنهم أقفلوا التحقيق في قضيتك؛ لعدم كفاية الأدلة الخاصة بالقضية.

- أية قضية؟!

- قضية التآمر على الرئيس السابق.

- كيف أقفلوا التحقيق؟ وماذا يعني ذلك؟

لم يعرف حينها قصة تداولتها النخبة فقط: أنهم حين اعتقلوا رجل السردين، كرهوا رائحته البغيضة، وعندما زجّوا به في أقبيتهم المغلقة، أزكمت رائحته أنوف الجميع، واستغل أحد الضباط وجوده في زنزانة جماعية، وسيلة لتعذيب المساجين!

استمر الوضع بهذا القرف، حتى كاد يموت على أيدي رفاق له في السجن. فقد أوسعوه ضربًا؛ حين خنقهم بنتانته.

أبقاه المسؤولون بعيدًا، في غرفة انفرادية قصيّة في آخر الرواق، واضطروا أن يضيفوا لها نظاماً للتهوية. خففت رائحته البغيضة

جولات التعذيب؛ لأن عناصر الفرع رفضوا الاقتراب منه لأسابيع.

لم يفرح طويلاً؛ فلم يجدوا مفراً من تسريع إصدار حكم ارتجالي بتصفيته، خاصة لما توسّل مدير الفرع، مرارًا وتكرارًا،إلى رئيس الجهاز، بأن يجد حلاً سريعاً لهذا الصدّاع!

اقتاده ثلاثة إلى منطقة نائية في جنوب المدينة، قريبة من سقيفة الشيخ عزمي. كان المكان رمزياً لا أكثر، حيث دبّر مؤامرته المزعومة. وبأوامر مباشرة من الرئيس المخلوع، أجهزوا عليه بثلاث رصاصات في الرأس، وألقوه في حفرة عمقها أربعة أمتار. وبعد أن دفنوه، أهالوا على قبره حمولة كاملة من القاذورات، كي يداروا فعلتهم، فتضيع رائحته الكريهة التي ظلت تنبعث من الأسفل مع روائح الفضلات.

لم يكفهم ذلك؛ بنوا سورًا حول مكان دفنه، الذي صار لاحقاً مكباً للنفايات. بعد ستة أشهر، علقوا لافتة فوق بوابته الحديدية، وكتبوا عليها: "خطر. ممنوع الاقتراب. نفايات سامة". نصبوا حراسة على مستودع الأوساخ، قبل أن يغلقوه بالشمع الأحمر.

برروا الأمر بعدم استيفاء معايير السلامة العامة، وكتبت صحف المعارضة في الخارج، تتهم الحكومة بأنها خصصت ساحة ترابية شاسعة في جنوب العاصمة لحساب دولة كبرى، دفعت مبالغَ طائلةً؛ كي تتخلص من فضلاتها النووية هناك!

وحين أدارت الدولة ظهرها لهذا الفناء المهجور، ورُفعت الحراسة عنه، نفياً للشائعات. بدأت الأقوايل تتحدث عن سقيفة مسكونة بالأشباح، لا تبعد سوى أمتار عن المزبلة. وكان سكان الحي القريب

يسمعون صراخاً كل ليلة؛ لرجل يتوسل الخروج من تحت التراب!".

المهم. فرك المحامي أذنه، وفكّر قليلاً قبل أن يجيب:

– لن تكون القضية في صالحنا. إغلاق ملفها يعني أنها انتهت، وأنهم أطلقوا سراحك. وأن القضية ليس لها أساس. وهكذا، لا يمكن اعتبارك متمرداً على النظام السابق. بدا المحامي مستغرباً، وسأل: هل أطلقوا سراحك فعلاً؟!

– لا أعرف؟! قال الدكتور عن غير وعي.

– ماذا؟ لا تعرف إن كانوا قد أطلقوا سراحك أم لا؟!

– لم أقصد، لكن لم أعُد إلى منصبي مثلا. و. و. وتساءل: ماذا تعني هذه الأوراق؟!

– تعني أنك بريء من تهمة التآمر على النظام السابق، وهذا سيء.

ضحك الدكتور في سره: لأول مرة تكون تهمة التآمر على النظام طوقاً للنجاة! قاعدة لم أتعلمها في السابق، ولا يمكنني أن أستوعبها حتى في دولة ديمقراطية.

تذكر ما قاله جاره "فضل". همّ الدكتور بسؤال، لم يطرحه: هل هناك احتمال بأنهم قاموا بتصفيتي في السجن، وحاولوا التستر على ذلك بإقفال التحقيق؟! لقد كان حائرًا كيف يختار بين شخصين يحملان اسمه. هو أو رجل السردين. علّق: ما العمل الآن؟

نفخ المحامي كرة من الهواء، وفجرها دفعة واحدة. حدّق في الطاولة الخشبية، وهو يقلب الأوراق. رفع رأسه، وفكرة ما تغالبه. قال، فجأة، وبصوت عالٍ: دعني أتمعن أكثر في هذه القضية، فالموضوع معقد،

ويحتاج إلى الكثير من التدبير.

خطرت في بال الدكتور فكرة، فقال فجأة:

- كنت قابعاً في المعتقل حين اقتحم المتظاهرون مقر الفرع، وفتحوا الأبواب، وأخرجوني مع البقية.

رقع المحامي حاجبيه فوق نظارته، وتوقف عن قراءة الأوراق:

- سمعت عن ذلك. هذا في صالحك. لا تقلق. لكني أردت أن أجعل منك بطلاً.

لم يفهم. بطل. كيف؟!

تركه المحامي، وهو في حيرة من أمره: هل سأظل في السجن، وما قصة "سيجعلني بطلاً؟". لأول مرة أكون ألعوبة بيد أحدهم في قضية، لا أعرف فيها كوعي من بوعي؛ وأترك حالي معلقًا، مثل دمية تحركها أصابع خفية. هل سيتركني هنا وحيدًا. كارثة. سوف يفترسني الجميع؛ بلا رحمة! الكل هنا لهم من يساندهم، باستثنائي.

أرجحته الحياة بما يكفي. لكنه لن يرى منها ما هو أصعب من تلك الأيام. تمنى، في عقله: نحن نعيش فترة حقوق الإنسان. بالتأكيد سيصدر الرئيس الحالي عفوًا عامًّا؛ فأنال حريتي من جديد. على الأقل حاولت قتل الديكتاتور. اللعنة عليهم، وعلى الديكتاتور!

***

مرّ شهر على الدكتور، كأنه سنة. تركه المحامي يلوك هواجسه. لا يطيق الحديث مع أحد، خشيَ أن يثير ريبة عملاءِ النظام في الزنزانة؛ فيتنمّرون عليه. مساعد وزير المالية يحتقره، والعدوى انتقلت للبقية، وذلك المرتعد لا يكف عن النظر إليه؛ كأنه شبح!

عرف، لاحقًا، أنه كان واحدًا ممن أجهزوا على رجل السردين. صار الدكتور منبوذاً حين عرفوا أنه توسل بذريعة محاولته اغتيال الرئيس السابق، كي يخرج من السجن. نعته أحدهم بالخائن؛ لأنه لم يتحمل ساعة حبس!

حدّث نفسه: كنت مجرد مخبر. ولماذا أكذب عليهم وعلى حالي؟. جريرتي الوحيدة أنني كتبت بعض التقارير بحق زملائي. شيء تافه، لا قيمة له! خطيئة لا تقارن بسرقاتهم، وجرائمهم، وفسادهم.

كانت فرحته غامرة لما نادى العريف باسمه من طاقة الباب الحديدي: زيارة.

خرج، كان العريف نفسه في انتظاره. تفضل، من هنا لو سمحت. قال في سره: يبدو أن المحامي جاء بأخبار طيبة.

دخل الغرفة نفسها. كان المحامي يتحدث بهدوء إلى رجل مهيب الطلّة. أنيق. ستيني. صوته رخيم، راقه كلامه. قالوا إنه كان معارضًا في المنفى. زعيم حزب معروف؟! كان مرجي باشا!

جلس المحامي حدّه؛ كطفل في الابتدائية. ظنّ الدكتور أن المحامي سوف يشرح كل شيء. لكنه لم يتكلم، احتضن حقيبته السوداء، وظل يراقب عن قرب، وأنفه يكاد يلامس وجه الباشا النَّضِر.

أمسك مرجي باشا دفة الكلام، شخَصَ الدكتور في وجهه متفحصًا، وبادله الباشا النظرة نفسها؛ كأنه يقيسه. انشرح صدر الباشا بابتسامة رضا، وبدأ الحديث: كيف حالك يا دكتور. أعتقد أنهم يعاملونك معاملة حسنة؟ أم أنا غلطان؟. قل لي إن كانوا يسيئون معاملتك حتى أتصرف.

قال الدكتور، مرتبكاً: لا. على العكس؛ بل المعاملة جيدة.

هل لديك أية طلبات: طعام معين. سجائر؟

- لا شكراً.

أرجوك أن تعذرني، فلم أتعرف على سعادتك.

شعر المحامي بالحرج من سؤال الدكتور المباغت، فطاف رأسه بينهما؛ كأنه يحاول أن يتكلم، مستأذناً الباشا، فأشار إليه، وقال: الوجيه مرجي باشا؛ مناضل معروف. يعني لو لم تعرفه في السابق، بالتأكيد سمعتَ عنه وقرأت عنه هذه الأيام، فصوره تملأ الصحف.

زادت حيرة الدكتور، يأتي مرجي باشا بحلته الفاخرة. معه المحامي ضامرًا في مقعده، ويريد تحقيق طلباته هو. "لماذا؟".

لكنه سرعان ما توقع أن وراء كل هذا الدلال، ثمناً يجب أن يدفعه.

قال الوزير، مقبلاً على مرجي باشا والنائب العام، بخجل دفع سيلاً من العرق يتصبَّبُ على صدغه: «صدقني يا مرجي باشا لم تكن لدي مشكلة في ذلك. كنت سأفعل أي شيء من أجل خاطرك. وأنا أشكرك لأنك أخرجتني من السجن. المهم، أتذكر أنك قلت

حينها»:

– اسمعني جيدًا، يا دكتور: نحن نعرف عنك أكثر مما تتخيل.

ارتعدت فرائص الدكتور، وواصل الباشا كلامه:

– نعرف تفاصيل علاقتك بالجهاز، وكيف أصبحت مسؤولاً مهمًا في الدولة. ولما تآمروا عليك. وقصة محاولة الاغتيال الوهمية. لا تحاول أن تقنعني بأنها صحيحة. على أيٍ، دعنا نسلّم فرضاً بأنكَ أردتَ اغتيال الرئيس المخلوع.

قاطعه الدكتور، بحماس: ماذا تعني؟– نحن نعرف أن قصة محاولة الاغتيال تلفيق في تلفيق.

خاف الدكتور أكثر. شعر كأن الباشا جرده من ملابسه، وقال: أوضح أرجوك. هذا كلام جديد!

عقد الباشا ساعديه، وابتلع شفتيه، وقال:

– لفّقوا لك التهمة؛ كي يبعدوك عن قيادة الحزب. المرتبة التي وصلت إليها كانت حسّاسة. لا تظن أننا كنّا غافلين، أعرف أنك ترفض الكلام. ماذا تنتظر؟ لا أسرار بعد اليوم.

أحنى الوزير رأسه إلى الأرض، واضطرب وهو يسرد تفاصيل لقائه مع الباشا. قال كلمات بالكاد سمعها من في الغرفة، ما جعل الموظف الهادئ يحاول أن يتقدم قليلاً على ساقيه، كي يتيقن من أن كل كلمة يسجلها على لسان الوزير صحيحة.

ضمر كتفيه، وتقلص في مكانه، واحمرت وجنتاه، وهو يتلو اعترافاته: «مع احترامي لنظريّتِكَ التي قلتها حين ذاك، ورغم أنك اقتربت كثيراً من الحقيقة، وهذا أمر لم يتوصل إليه أحد، وهذا يدل على ذكائك المتقد بالتأكيد. وأنا لا ألومك أبداً يا باشا، لكن بالطبع لم تكن لتعرف أن هنالك شخصاً آخر هو أنا استفزني لألفِّق له تلك التهمة».

بادله مرجي باشا نظرة ثاقبة، وقال مشمئزاً: « أكمل روايتك وهل تعتقد أني سأبالي برأيك، بعد كل ما قلته. أنت مجنون يا معالي الوزير، كلامك لن يأخذ به أحد».

استفزت كلمات الباشا، أعصاب الوزير المهترئة، وفضّل أن يوجه كلامه إلى النائب العام، حين لمح في وجهه خبثاً متوارياً عن عيون الباشا، وحماسة شديدة في سماع التفاصيل، وإن لم يجاهر الجالسين برغبته تلك.

واصل الوزير، مقتبساً كلمات مرجي باشا. حينها قلت لي، حرفيًا: لا تماطل يا دكتور. كنتَ على بعد أمتار من منصب نائب الرئيس! وتابع: كانت صدمتي كبيرة. كلامك كان يعني أني لو انتظرت قليلاً لربما بلغ رجل السردين منصب الرئيس، وأنا قابع في سقيفة الشيخ عزمي! ما الفائدة؟! الشعب كان سيخلعني على أي حال، أقصد يخلعه. كان يجب أن أثبت محاولة الاغتيال على حالي، لا أن أضيّع وقتي في أحلام لم تحصل، وإن حصلت لم تكن من نصيبي.».

جهد الدكتور، محاولاً إقناع الباشا. المحامي، بأنه هو من حاول اغتيال الرئيس السابق. فكّر: إنها الورقة الوحيدة التي يمكن أن تنقذه من مأزقه:

– لكن هنالك أدلة تثبت محاولتي لاغتيال الرئيس. وأسماء أشخاص تعاونت معهم. حتى أن العناصر وجدوا بصمات أصابعي في كل أرجاء شقتي القديمة، ومنشورات وأوراق كتبتها ضد النظام. التهمة كانت ثابتة علي لا شك في ذلك!!

بدت أمارات التعجب على الباشا، وتساءل الدكتور في سره: هل من الغريب أن هنالك أدلة تدينني؟! كيف إذن عرفت الحكومة بمحاولة الاغتيال؟!

أكمل كلامه، بثقة: يجب أن تكون هنالك أدلة، وإلا كيف افتضح أمري، هذا منطقي، أليس كذلك؟!

حرك الباشا نفسه على المقعد، ومسح بكفه زغب الشعر المتبقي على صلعته اللامعة. كأنه أراد أن يتمالك عقله قبل أن يسأله: «تتحدث وكأنك تتباهى بالأخطاء التي تركتها وراءك. كأنك قمت بمحاولة اغتيال بهذا الحجم من دون اكتراث؟!».

– لا أقصد ذلك. أعني هذا ما قيل لي في التحقيق.

– جميل. كان هنالك أخذ ورد مع ضباط التحقيق، بعد قليل ستقول إنهم خيّروك بأن لك الحق بالتزام الصمت، وعدم التحدث إلا بحضرة محامي!

قال الباشا كلامه، وألحقه بنظرة ساخرة للمحامي قربه؛ ليشركه معه

في ضحكة، لم يقدّر لها الانفجار، وتابع: على كلٍ. لم يتم العثور على كثير ممن تورطوا في محاولة الاغتيال. تمت تصفيتهم، جميعاً، باستثنائك.

جفل الدكتور. فكّر: «ما هذه الورطة، تكبر أم تصغر. متى ينتهي هذا الكابوس؟!

استرجع الباشا نظراته، الودودة، بينما أخذ المحامي يمسح عرقاً فوق جبهته؛ منتهزاً فترة صمت سادت الغرفة. قال المحامي، بخجل: الباشا يريد أن يخبرك بأمر مهم. والقرار لك بالطبع.

طقطق الدكتور أصابعه، وأطرق منتبهًا بكامل حواسه. شعر أنه قال ما يكفي. ويجب أن «يخرس».

سعل الباشا سعالا مصطنعا، مرتين، ووضع قبضة يده على فمه؛ لتضفي على حديثه طابعًا خطابيًا. ذبلت عيناه، وأرخى كتفيه للأسفل، ودلى شفته السفلى؛ إيذاناً بالكلام. حينها قال عبارته الذهبية:

- نريدك معنا في الحزب.

- كيف؟ لم أفهم؟

- سوف نخرجك من هنا، تأكد من ذلك. لكن قبل أن يحين هذا الموعد، يجب أن نأخذ عليك عهداً بالإخلاص للحزب، وأن تمتثل لكل ما يُطلب منك. أمامك مستقبل واعد.

- كيف سأخرج؟

- بسيطة. سوف نبدأ بمحاولة الاغتيال. سنجعل منك بطلاً. المسألة لعبة إعلام. نقدمك كشهيد للنظام السابق. المعتقل المنسي في أقبية النظام البائد. المظلوم بالأمس واليوم. وكل هذا الكلام «الفارغ».

أخذ العرض من الدكتور مأخذه. شعر بنمنمة في ذراعيه، ومغص في بطنه. ربما كان سعيداً. لم يتبين مشاعره، إلا عندما تركه الباشا وحده في الغرفة.

– ماذا عن تاريخي. أنت تعرف، أنا كنت من أزلام النظام. أليس هذا وصفكم لمن كان وطنياً يخدم الدولة؟!

– أشك! لكن هنالك قاعدة مهمة، يجب أن تعرفها: عادة، الشرير الذي يصحو ضميره الميت فجأة، يثير إعجاب الناس أكثر ممن عُرفوا، دائمًا، بضمائرهم الحيّة! فالثاني تصبح مبادئه مملة، ولكن أمثالك، من أزلام النظام البائد (دعنا نفترض أنك انقلبت عليه في لحظاته الأخيرة) سيكون هذا جيداً. بلغة الإعلام، سيكون رومانسيًا ومؤثرًا.

– تأكد. لا يهمني إن استيقظ ضميرك أم لا. المهم ما سيأتي لاحقاً. هل تفهمني؟ وطبعاً التزامك بعهد الوفاء للحزب. وعليك أن تتذكّر: الحزب، وليس الدولة.

صار الدكتور مثل المحامي؛ تلميذًا في الابتدائية يحاول حفظ بيت شعر يلقنه إياه الباشا. أجاب بانضباطية:

– نعم. نعم.

– وبعد أن نستنفد لعبة الإعلام، سيحين موعد تحريك الشارع. سنطلقه إلى الطرقات والميادين، مثل الجراد. سيكون أداة ضغط على الحكومة المؤقتة إلى أن تُضطر لإطلاق سراحك.

– هل هذا مضمون؟

– بالطبع يا دكتور. – ضحك الباشا بغرور – الشارع في أيدينا وهو

من يحكم اليوم.

- وماذا بعد ذلك؟

أغمض مرجي باشا عينيه مطمئناً. عاد للوراء مسترخياً. تناول علبة سجائر من جيب جاكيته. أشعل سيجارة ونفث دخانها في وجه الدكتور منتصرًا وسيدًا لكل شيء في هذه الغرفة الصغيرة. كأنه وَسَمَهُ بختم ملكيته. واختتم اللقاء بجملة واحدة: كل شيء في وقته جميل يا بطل.

***

جمعة الدكتور

بدأ مرجي باشا خطته بالفعل، كما وعده.

وصل مغلف كبير إلى أحد الصحفيين البارزين؛ أحد أصدقائه الكثر. مستندات وتسريبات من أفراد متواطئين في الأمن. وثائق تكشف تورط الدكتور في محاولة اغتيال سرية للرئيس السابق. ومن دون تردد، اعتبر الصحفيّ المغلف هبة من السماء. ربط الوقائع بخبرٍ نُشر، في ذلك الحين، عن سفر الرئيس السابق إلى الخارج من أجل العلاج.

قالت الصحف الرسمية في تلك الأيام، إن الرئيس غادر بسبب وعكة صحية.

أضاف الصحفي استنتاجاً من عنده في آخر التحقيق: «هل أدّت محاولة الاغتيال إلى إصابة الطاغية بجروحٍ بالغة أجبرته على تلقي العلاج في إحدى الدول المتقدمة؟!». ونشر خبراً صغيراً من أربعمائة كلمة فقط على الصفحة الأولى، وترك النار تنتشر في الهشيم.

تداولت وكالات الأنباء الخبر، وصار حديث الساعة. وبعد أيام نشر الصحفي نفسه تحقيقاً مطولاً فرده على صفحة كاملة، مع شريط في الأعلى ضمّ صورة الدكتور ومعارضين سقطوا معه، ولم يظهروا لاحقاً. شمل الريبورتاج رجالاً آخرين انقلبوا على النظام البائد.

كان التحقيق صاعقًا. استثمره كاتب مشهور في تحليله حقبة سبقت

الثورة بسنوات. عرض الكاتب محاولة الاغتيال باعتبارها مؤشرًا مبكرًا على سقوط الرئيس. وكتب آخرون عن شخصية الدكتور، وتحولها من عميل سابق للنظام، إلى ثائر عليه. انتقده قليلون على استحياء، متجاهلين بطولاته! واعتبروه كمن قفز من سفينة تغرق، لا أكثر. توالت المقالات، وتطورت لتصبح باباً للإشادة بوصفه أحد رواد الثورة وملهميها!

كتب الصحفي تحقيقاً آخر حول وضع الدكتور في سجن الثورة، وكيف يساويه ذلك بأزلام النظام. كتب عنواناً عريضاً لمقالة رأي: «البطل المنسي وراء القضبان». أثار التحقيق الثاني موجة أخرى من الجدل والغضب.

في يوم وليلة. صار الضحية، وشهيد الثورة.

كبرت «الزوبعة» الإعلامية، وصارت إعصارًا. تناولتها الفضائيات بإسهاب. جَهِد أحد المنتجين الإعلاميين في البحث في الأرشيف عن مادة مصوّرة حول القضية.

بعد يومين من التنقيب في بحر من المشاهد لأحداث الثورة الأخيرة، عثر المنتجون على لقطات لمتظاهرين شبان يخرجون من مقر الفرع، فيما أسموه لاحقاً بأحداث «اقتحام مقار المخابرات».

كان الشبان يرفعون الدكتور بجسده البالي جراء التعذيب فوق أعناقهم. وجهه الشاحب والهزيل، أعطى طابعًا ملحميًا للمقطع. والأهازيج تهتف بحياته.

قال مُقدِّم البرنامج «إن العرض حصريٌ، وأكبر دليل على براءته».

خلط مقدم البرنامج الصور القديمة، بأخرى جديدة عن الدكتور وهو مكبّل داخل السجن برفقة نزلاء آخرين من أزلام النظام البائد. التقطها من هاتف نقال نجح في تهريبه إلى أحدهم ليصوّره خلسة في المهجع.

أجرى لقاء مع مرجي باشا، الذي دافع بإسهاب عن إسهامات الدكتور في إيقاظ شرارة الثورة.

استضافت الفضائيات كتّابا ومناضلين سابقين أصبحوا مفكرين. شيوخ وعلماء ومختصين في علم النفس الاجتماعي، أكثروا من الحديث عن مناقب الدكتور وخصاله النبيلة، وتوبته النصوحة. كان بعض رجال الشرطة المتعاطفين مع الثورة، يسمحون للدكتور بمشاهدة البرامج من غرفة المدير في ساعة متأخرة من الليل. يهزونه من كتفيه ويضحكون. ويرددون: يا بطل!

ألهمت القصة الجميع، تحت عنوان: «صحوة ضمير». قالوا إن محاولة الاغتيال كانت إسفيناً ترك صدعًا في جدار الخوف من النظام البائد. لكن مقدم البرنامج، بهيّ الطلعة، نجح في إثارة القلق من أن يتحول اعتقال الدكتور اليوم، إلى إزميل تدقه الحكومة المؤقتة في مشروع الديمقراطية الوليد، ويدمرون بهذا ما بناه الشعب؛ بدمه وثورته المجيدة. وحذروا من انتهاك حقوق الإنسان، وعشوائية الاعتقالات، والعمليات الثأرية.

اتفق الجميع على كل شيء، واختلفوا، فقط، حول إن كانت يقظة ضمير الدكتور جاءت متأخرة أم في وقتها تمامًا. علق أحدهم، منفعلاً:

هذا هو التوقيت الأفضل في تطور وانهيار الديكتاتوريات.

أقام الثوار مهرجانًا تأبينيًا لرفاق الدكتور في النضال ممن سقطوا شهداء المحاولة الفاشلة لاغتيال الرئيس السابق. بمن فيهم الشيخ عزمي، وابنه الذي لم يعرف أحد عنه شيئاً، والمجنون مصطفى!

عرضت فضائية أخرى برنامجاً وثائقياً، ولقطات «تمثيلية» للعملية. ذكرت الوثائق تعاون الدكتور مع جماعة متطرفة لإنجاز العمل. لكن الجميع تغاضوا عن دورها في المحاولة. وكأنها لم تكن موجودة!

اتهم مفكرون الثورة المضادة بالعمل على تقويض الوطنيين الشرفاء، وإقصاء الكفاءات والمخلصين من المشهد السياسي.

استغلّ مقدم البرنامج الأنيق، حلقة أخرى عن القضية، وقال في نهايتها كلمة «كرّموه». كلمة أصبحت بعد ذلك، رمزاً لثورة جديدة من أجل الدكتور.

وجاء النفير.

أعلن شباب الثورة عزمهم على الخروج في الجمعة اللاحقة؛ جمعة حملت اسمه. كانت جمعته بامتياز، نادى الثوار»«كرمّوه ولا تعتقلوه.»، طوّق عشرات الآلاف، مركز الشرطة الكبير، حيث أقام الدكتور على ذمة التحقيق. حاصر المئات، مديرية الأمن العام في وسط البلد. سمع هتافاتهم.

جاءوا بعد صلاة الجمعة. مزمجرين، متأهبين لمعركة. وبقوا حتى المساء.

قذفوا الدرك، وقوات مكافحة الشغب بالزجاجات الحارقة. سمع

الدكتور صراخهم. دكّت الحجارة شبابيك السجن. حطمت الزجاج. ودوّى إطلاق نار في كل زاوية. بدا وكأن العاصمة تحترق من أجله. البلد تثور على الثورة من أجله.

انكمش تحت وقع المعركة. أصابه القلق من شيء يفوق حجمه بمراحل. ما الذي يحصل؟! خشي أن ينتقم رجال الشرطة منه؛ فيضربوه لأنه تسبب، من حيث لا يدري، في دمار مركزهم.

كاد يلتمس الضابط أن يسمح له بالخروج؛ ليطلب من الشبان الهدوء، والعودة إلى منازلهم. فتح مدير المركز باب المهجع. ألقى نظرة سريعة على الدكتور. أراد التأكد أنه لا زال في الداخل. طلب إقفاله، وغادر على عجل.

وفي ساعات الليل. هدأت الاشتباكات. ظلت أصواتهم تزعق، بين حين وآخر. علقت رائحة الإطارات المحروقة، ودخان الغاز المسيل للدموع في أنف الدكتور. وجلس مع نفرٍ من السجناء، يتابعون الأحداث من هاتف محمول. كانوا سعداء؛ يتمنون لو يُهدم المركز على من فيه، ويفتح الشبان أبوابه ويهربون جميعهم.

قال أحدهم إن هناك اعتصامًا في الخارج. وإن الشباب نصبوا خيامهم فوق الأرصفة، وأغلقوا الشارع. رفعوا لافتة كبيرة كُتب عليها بالأحمر أنهم لن يغادروا إلا برفقة الدكتور. وأخرى تقول «كرمّوه ولا تعتقلوه».

ارتبك رجال الشرطة. أخرجه عدد منهم من الزنزانة إلى غرفة محصنة في الأسفل. أخبروه أن هذا في مصلحته، ولحمايته من أزلام

النظام السابق. قال شرطي متحمس: أنت ابن الثورة الآن.

وضعوا حراسة مشددة. جلبوا له العشاء من مطعم الوجبات السريعة. أشار العريف إلى يمين الباب، وطمأنه بأن هنالك شرطياً مناوباً إن احتاج أي شيء. أمسك وسادة، ووضعها فوق الكنبة الطويلة. فتح الدولاب وتناول غطاء جلد النمر، وقال: أتركك تنام الآن. ربت على كتفه، وقبل أن يغادر عاد مسرعاً وكأنه نسي شيئاً: إن احتجت الحمام، دقّ هذا الجرس تحت الطاولة. ابتسم وغادر، وهو يقول: «يا رب أستر».

شكره الدكتور مندهشًا لكل ما يحدث.

في الصباح الباكر. جاءت فرقة مجوقلة من الجيش. فرضت حصاراً صارماً حول المركز. وتعالت الهتافات، تخلّلتها شتائم الضباط النابية. فتح شرطي هائج الباب على الدكتور، وصرخ في وجهه: الدنيا مشتعلة في الخارج. من أنت؟! هذه أول مرة أراك فيها، والناس في الخارج يموتون من أجلك.

دخلت سحابة غاز مسيل للدموع إلى مهجع المساجين. وبدأت جولة من السعال والارتباك. سمع الدكتور صوتاً خشناً يعربد بجنون: أغلقوا الشبابيك يا حيوانات. من فتح الشبّاك؟!

أسبوع من الاضطرابات. لم تتوقف إلى أن رأى الشبان الدكتور برفقة عمداء وعقداء من الجيش والشرطة. أخذوه على عجل إلى سيارة الدورية. تتبعها مجنزرات وشاحنات الجيش تقل عساكر كثر. لحقوا به في موكب مهيب.

أقلّوه إلى مبنى النيابة العامة. وخلال دقائق، كان يقف في حضرة كبار المحققين، تلوا بعض الوقائع. وألقوا عليه قائمة طويلة من الأسئلة. تذكر منها ما قاله النائب العام نفسه: هل شاركت في محاولة اغتيال الرئيس المخلوع؟ أجاب: «نعم» من دون تردد. كان كل شيء مرتبًا وسريعًا وسهلاً للغاية. أمر النائب العام بإقفال فوري للتحقيق.

غادر الدكتور لعقد مؤتمر صحفي؛ لإعلان قرار النيابة العامة إطلاق سراحه أخيرًا.

وقف بين حشد من الأطقم الفاخرة، وربطات العنق المزركشة أمام الفلاشات المضيئة، كي يتأكد المتظاهرون أنه خرج. طلبوا منه ألا يرد على أسئلة الصحفيين، وأن يكتفي بابتسامة ثابتة أمام الكاميرات.

عمت الفرحة الأرجاء.

مشى في الممر، وسط صيحات بعض الصحفيين وأسئلتهم وومضات الأنوار الساطعة. لمح الدكتور مرجي باشا والمحامي بين الجماهير. أراد أن يسأله: ما العمل الآن؟ لكن الباشا اختفى في لحظة. وبقي وحده يتلقى التهاني من أشخاص لا يعرفهم.

استكمل المحققون إجراءاتهم، قالوا «إنها روتينية»، وأخلوا سبيله بضمان إقامته. تذكر: أية إقامة، وقد بعت شقتي. ولا مكان يؤويني!

حاول رجال الشرطة تطويقه لحمايته من بهجة المتظاهرين في الخارج. وما أن خرج انتزعه الشبان من أيدي الشرطة عنوة، وتلقفوه بسعادة.

«الأغرار. ما أسرع أن يحملوك على أكتافهم!» قال الدكتور في سره.

رفعوه وسط ضجيج شعارات تفديه بدمائهم. هي المرة الثانية التي

يضعه الشبان فوق أعناقهم، احتفالاً بإطلاق سراحه. قال في عقله، منتشياً: الصبر جميل!. خلال شهرين فقط. صرت فيها رمزًا للثورة على النظام السابق. وكنت يومًا مخلصاً له!

***

طوال عمره، يحسب الدكتور أن الحياة تسير بخط بيانيٍّ واحدٍ. أعدّ العدة لهذا الخط المستقيم، راعى كل صغيرة وكبيرة لضربات البندول المنتظمة.

ولرجل مثله، يجب أن تكون الأشياء موضوعة بعناية في أمكنتها الصحيحة. اللوحة الزيتية لفنان روسي مغمور في النقطة الوسطى للواجهة الأمامية في شقته القديمة. والزهرية الفاخرة التي غامر، واشتراها بثمن باهظ من بازار للتحف القديمة في إحدى سفراته إلى اسطنبول. أطقم الكراسي الخشبية المطلية باللون الذهبي على الطراز الملكي الفرنسي، وقطعة السجاد الأفغانية. تماثيل البورسلان الرائعة التي أهداه إياها خاله الثري. كل ذلك باعه بسعر بخس لينقذ ما يمكن إنقاذه، ويبقى على قيد الحياة.

توقع في نكسته كل شيء، إلا أن تؤول الأمور إلى ما آلت إليه. بعد المهانة والانهيار، تشرق شمسه ثانية، ويعود عالمه أجمل من ذي قبل. بدأ يحب ذلك «البديل»، من سرق اسمه. أسف له، ولما حلّ به. شعر بحبِّه له. وتمنى لو كان بالفعل خطط لعملية الاغتيال بنفسه، حتى لا تروح تضحيته سدى!

لكن في صميم قلبه كان ثمة قلق ضئيل من أن يكون هناك، على قيد

الحياة في إحدى الأقبية المنسيّة، ينتظر موعده للخروج، ليدمر ما أعتزم بناءه هو من جديد.

أقول لكما بصدق. قال الوزير وهو يقلب الكلام في فمه بمتعة. جاهد لينظّر على النائب العام ومرجي باشا، وأشار للموظف أن يكون دقيقاً في نقل ما سيقوله هذه المرة: «كاذب، من ينكر قمع النظام البائد. ومن لا يتذكر تسلّطه على رقاب العباد؟! أحمد الله أني انقلبت عليه في اللحظات الأخيرة. شيء ما ألهمني تلك الفكرة النيرّة. كأن البديل جاء ليدفعني في هذا الاتجاه قبل فوات الأوان. أنا ابن الثورة كما قال الشرطي. نعم. عليّ اليوم أن أخدم بلدي بشرف. ومن غيري يقدر على فعل ذلك؟!».

خرج الدكتور من السجن إلى الشارع، وحين سأله سائق سيارة الأجرة عن العنوان، لم يعرف ماذا يقول؛ فلا مكان يذهب إليه، أجابه السائق: «هي أشياء لا تذكر.»، تعجب من رده. دفع السائق بعمود السرعة إلى الأمام، وانطلق بقوة ألصقت ظهره بالمقعد. كانت الريح المندفعة إلى النافذة تعانقه، وتلهو بشعره المتطاير.

«أين يأخذني هذا المجنون؟!»، نظر السائق في المرآة. وبعينين ضاحكتين، أجاب: ستعرف حالاً.

حلّ الدكتور ضيفاً على فندق فخم. أقام هناك مدة كافية، يأكل ويشرب على نفقة الحزب. يتصفح وريقات وملاحظات عديدة تركها

له الباشا في الغرفة، قبل أن يأتي إليه حاملاً ظرفًا بني اللون.

ربّت الباشا على ساق الدكتور، وقال: هيّا يا بطل، حان دورك الآن.

فتح الدكتور الظرف، فعثر فيه على حلقة مفاتيح، ورزمة من النقود. لم يدفع فلساً واحداً للمحامي، أو للفندق، أو حتى لسائق سيارة الأجرة. كل شيء كان مرتبًا، بما في ذلك الرحلة من الفندق إلى فيلا رجل السردين. إنها ملكه الآن. استرجعها أخيراً: باسمي. باسمه. لا يهم الاثنان واحد.

وصل التاكسي إلى بوابة حديدية ضخمة، انبلجت أوتوماتيكيًا عن حديقة كبيرة، يشقها طريق صغير مرصوف بالحجارة الخمرية الناتئة. تنتهي إلى باب خشبي مؤطر بحزام نحاسي مضيء.

وقف ثلاثة رجال وسيدة أمام الباب. بدا أنهم خدم البيت. استقبلوه مرحبين. هتف رجل من أعوان الباشا على الخدم، وقال: تعالوا سلمّوا على سيدكم القديم!

نظر أحدهم إلى الدكتور مستغرباً؛ السّائق. أحنى رأسه بجسده المنتصب، ووضع ذراعيه مستقيمتين بجانب جدعه الطويل. لاحظ الدكتور قدمه تدك الأرض باحتكاك خفيف. حيّاه تحية عسكرية حاول أن يخفيها. أتبع نظرته تلك بأخرى، تقول: ماذا. ألا تتذكرني؟ تجاهله. لم يعرفه، وخمّن: لا حاجة لي بذلك!

دخل الدكتور الفيلّا مصحوباً بجماعته. كان دائماً يراقبها عن بعد، ولا يرى منها سوى كشك الحراسة، وكوخ صغير للكلاب البوليسية. تحيطها حديقة تزنرها الورود. مدخلها مهيب.

الرائحة الكريهة كانت لا تزال عالقة في الأثاث. غرفة النوم. لا تطاق. أمر الخدم بتنظيف كل شبر فيها. وإزالة صور الرئيس المخلوع، تعجّبوا حين طلب الدكتور منهم رفع صوره عن الجدران، وتعليق صور أخرى له لا تختلف كثيرا عن الأولى من جديد!

لم يشأ أن ينظر إلى وجهه الآخر حتى لو كان له. أحرقها، جميعًا. هرب من ملامحه، وانقطع أيامًا عن رؤية وجهه في المرآة حتى أنسته الأحداث اللاحقة فكرة الخوف من حاله الآخر.

«رجل السردين كان قذراً، لكنه امتاز بذوق رفيع، مثلي تماماً.».

جمع مقتنيات ونفائس جعلت الفيلا، قصراً لأحد العائلات العريقة. أبقى الدكتور على الأنتيكات واللوحات والسجاد وقطع الكنب، وأطقم الملاعق الفضية، والشمعدانات، والطاولة الخشبية الضخمة مع كراسيها المنجدة بأقمشة إنجليزية فاخرة، وصحون الصيني الثمينة بأختامها الملكية، وأباريق الشاي، وتحف البورسلان، والتماثيل الباريسية الرائعة. حتى خزانة الملابس كانت مليئة بأطقم الفان غيلز، والدوتي، والمون بلو والبير كاردان.

كوّمها معاً، وأرسلها إلى المغسلة.

لم يقدر على وصف تلك اللحظة، مفاجأة أعدّها له رجل السردين. فتح خزانة الأحذية. جلس القرفصاء؛ يتأملهما. كانا بنفس لمعانهما. رمز الأناقة الإيطالية. زوج الأحذية. لطالما حلم بامتلاكهما. أحسّ أن البديل اشتراهما خصيصًا له، وكأنه خرج إلى الحياة، وغادرها من أجل أن يقدم له تلك الهدية. حذاء بيرولتي فاخر على مقاسه، لا فرق

أبداً، نفس الانتفاخ عند مشط القدم، لولا الرائحة النتنه التي غسلها بزجاجتي عطر، وحشر فيهما ضمة ريحان لليالي عديدة، وعندما فقد الأمل في زوالها، اشترى له حذاءين جديدين من الماركة نفسها!

ما هي الخطوة التالية؟ كان يسأل: ما الذي خطط له مرجي باشا بعد أن أطلق سراحه بثورة ثانية. لم يعرف حتى زاره المحامي ذو الأسنان الصفراء. أخبره أن يستعد لإجراء لقاء مع إحدى الفضائيات. أعطاه الأسئلة والإجابات. وتوالت بعدها المقابلات، والأخبار في الصحف. لم يحتج لتلقين. صار مشهوراً. رجل المرحلة كما أسماه بعض الكتّاب.

حلّ موعد التسجيل للانتخابات البرلمانية. اتصل به الباشا، ودعاه للمجيء إلى مكتبه. استكمل عنده إجراءات انضمامه للحزب. لم تهمه التفاصيل. اتجاه الحزب وميوله وتحالفاته. كان شغوفاً بالعودة إلى الحياة. وقّع كل ورقة وضعها مرجي باشا أمامه. وشرح له كيف أنّ الانتخابات هي هدف الحزب.

في الاجتماع الثاني؛ انضم الدكتور إلى عدد من القيادات. وضعوا له خطة ترشيحه في دائرته الانتخابية، اختاروها له بعناية، وأخبروه أن الباقي عليهم. قدموا دراسة مفصّلة عن المنافسين. حذره الباشا من الارتجال: «كل خطوة يجب أن تكون بالتشاور. أنت لست وحدك. نحن ندعمك، لكنك تمثلنا جميعاً، لا داعي للفلسفة. هل تفهم؟!»، أجابه: «أنا من يدك هذه إلى تلك. أنا خادمك المطيع!». لم يفوّت فرصة واحدة ترتقي به إلى الأعلى.

اكتسح الأصوات. وفاز فوزًا مدوّيًا. فكّر: «أنا محبوب الجماهير.

تمامًا كما قال الباشا: خائن تائب أفضل من مناضل ملّه الناس!».

منحه الشعب ثقته، ومنحته الدولة راتبًا كبيرًا، وسيارةً فخمة بلوحة رسمية، وصار يتحدث باسم الشعب. «أفضل ما في الانتخابات أنها سمحت لي بنيل مقعد في البرلمان، وضيّعت الفرصة على الرعاع من الوصول إلى هكذا مناصب. لا يجب أن يشغلها سوى أولاد الذوات. هكذا هو الواقع.».

دافع تحت قبة البرلمان عن توجهات الحزب. ردّد شعاراته بطلاقة. وسمع كلام الباشا.

مفاجأة أخرى خبأها له هذا الباشا.

أرسل الوجيه مرجي في طلبه لاجتماع مع قيادات الحزب. كانت غرفة واسعة في المقر. اجتمع فيها سبعة أو ثمانية من أعضاء البرلمان، والقيادات. كان الدكتور سعيدًا وهو يستمع لحديث مطول عن السياسة القادمة. هذا الكلام المقعّر.

جال ببصره في القاعة. تفحصّ الموجودين، كيف يتصرفون، ويتحركون، ويتحدثون وماذا يقولون. نفخ صدره، ورفع رأسه، وأغمض جفنيه نصف إغماضة؛ منصتاً بهدوء لكلام الباشا. وتخيل: «أنا لست أقل منهم شأناً. أنا عضو في البرلمان. قبل أن يفكروا بترشيح أنفسهم، كدت أصل إلى منصب نائب الرئيس في العهد البائد. المستنسخ أو أنا سيّان. أنا شخصية عظيمة!»

وضع بعضهم ساقًا على أخرى. فعل مثلهم. أشعل آخر سيجارًا طويلاً. وإن يكن. انتشل واحداً من جيب جاكيته، وراح ينفخ دخانه

كما يفعل. ذكّر نفسه بتلك العبارة: أنا شخصٌ مهم. أنا شخص مهم. لا فرق بيني وبينهم. إنه الحظ، وقد حالفني، لا أكثر.

قاطع رجلٌ مسن، الباشا، وقال شيئًا لم يفهمه الدكتور، رد الباشا: «بالتأكيد. بالتأكيد.» ثم ابتسم وقال نكتة سريعة، ضحك الجميع بوقار. وضحك الدكتور معهم بالقدر نفسه. علّق آخر بعبارة لم يتبين الدكتور معناها، كان منشغلاً بطريقة إمساك السيجار: أيضعونه بين أصابعهم مثل السجائر، أم يمسكون به، بأطراف أصابعهم مثل النساء؟!

التفت الباشا إلى صاحب الرأي، وقال: «سيكون ذلك في المرحلة التالية. ليس الآن جنابك»، ولم ينه الباشا جملته. حتى اندلع جدل حاد بين الموجودين، وكأن الباشا افتعل كارثة بجملته تلك. أراد الدكتور أن يتدخل، عندما حاول الباشا جاهدًا أن يوضح وجهة نظره، لكن ذلك الآخر استغلّ الوضع، وأخذ يتكلم ويتكلم؛ من دون توقف.

وقف الدكتور بارتجالية، وقال: «لو سمحتم.» لم يستجب له أحد. كرر عبارته بصوت حاد: يا جماعة. لو سمحتم. توقف الجميع عن الكلام، فجأة، فقال: أرجوكم، دعونا نترك الباشا ينهي كلامه. وبعد ذلك لكل حادث حديث.

أشاح الدكتور بصره عنهم، وتركهم مأخوذين بالصدمة. نظر الباشا إلى الدكتور، وابتسم بأدب، كي يكمل حديثه. شكره، وتابع: طلب مني رئيس الدولة «المعيّن» التشاور؛ لاختيار رئيس وزراء من الحزب. وأنه دعا لهذه الجلسة التشاوريّة لاختيار رجال من القيادات، لشغل المناصب الوزارية في الحكومة الانتقالية.

طلب الدكتور الإذن بالكلام. تفضل، قال الباشا. فقال: يجب على من يشغل هذه المناصب، أن يتحلى بالولاء والإخلاص للحزب.

- شكراً دكتور. هذا شيء مفروغ منه.

استرسل الباشا في خطة وضعها للحصول على ثقة البرلمان. والتحالفات المطلوبة. استفسر الرجل الذي تحدث في البداية عن موقف حزب آخر. وسأل إن كانت هنالك إمكانية للدخول في ائتلاف معه.

لم يفوّت الدكتور الفرصة، رفع إصبعه بأدب، طالبًا الإذن بالكلام مرة أخرى، «ماذا؟»، سأل الباشا بشيء من الضجر. ردّ الدكتور: «أنا عن نفسي سأصوّت لجماعتنا». سكتَ الباشا مغتاظًا. وقال: «أرجوكم لا تقاطعوني حتى أنهي ما لدي. هل هذا ممكن لدقيقة فقط؟!».

وزّع الباشا حقائب وزارية على شخصيات تواجدت في الغرفة، وأخرى غائبة، ولم ينس أن يعطي بعض الوزارات لأحزاب معارضة. عاد الجدل عندما كشف الباشا عن قائمة المناصب السيادية. أخذ النقاش ساعات حتى توصل الجميع إلى تسوية. وظلت حقيبة واحدة، التعليم العالي. تملّك الدكتور الملل؛ فقال في عقله: «عشر دقائق أخرى، وأستأذن من الباشا وأغادر. مالي وهذا النقاش العقيم. كلام لا ينتهي في السياسة. لتفعلوا ما يحلو لكم. سوف أصوت لمن ترونه مناسباً.».

نظر الباشا إلى الدكتور شارد الذهن، كان يبحث عن علبة الكبريت في جيبه ليشعل سيجارًا. بعد أن سها عنه فترة، وخمدت جمرته. قال الباشا: أحضرنا يا دكتور.

- من؟. أنا؟!

- نعم أنت.

أمسك رجلٌ جلس حدّ الباشا ذراعه. كأنه يثنيه عن شيء ينوي فعله. أفلتها الباشا بهدوء؛ كي لا يثير الانتباه. همس الرجل في أذنه. أجابه: «حسناً لا تقلق، أنا أعرف ماذا أفعل.» ضرب على كتفه بخفة، وابتسم. وعاد إلى الدكتور:

- ننوي ترشيحك لمنصب وزير التعليم العالي.

- أنا؟!

صعق الدكتور في البداية، وظنّ أن الباشا يتندَّر، ويريد أن يجعل منه نكتة الجلسة كي ينهيها بشيء من الفكاهة. حاول أن يتأكد من أن الباشا يوجه الكلام له، وليس لجاره، نظر حوله. كان الجميع يسلط أنظاره عليه. رمقه أحدهم بنظرة ساخرة. وآخر منع ضحكة في جوفه من التشظي. اعتقد أنهم يغارون من علاقته المتينة بالباشا. لكن شعوره بالريبة، من أنهم يحاولون خداعه، لم يفارقه. وقال:

- تمزح؟!

علق الباشا على سؤال استفزه. وجاوب:

- هل هناك مزاح بيننا يا دكتور. وهل هذه جلسة سمر؟! لنا ساعات نتحدث عن خطط وحكومة وائتلاف، وأنت تقول: «تمزح!».

سأله بحزم إن كان يقبل بالمنصب أم لا؟ لم يجب، فصرخ الباشا في وجهه.

شعر الدكتور بالمهانة. لكن صياح الباشا الحاد لم يمنعه من قبول العرض. «طبعاً. طبعاً. أقبل».

فضّ الموجودون الاجتماع. تركهم الدكتور غير مصدق. سوف يصبح وزيراً للتعليم العالي.

صوّت البرلمان بالثقة للحكومة الانتقالية. وأدى الوزير الدكتور القسم. انتعل حذاء الـ «بيرلوتي» الجديد. حفظ فقرة القسم عن ظهر قلب. قرأها مائة مرة قبل حفل تكليف الحكومة بمهامها. لكن عندما أقسم اليمين أمام الرئيس المؤقت، ارتبك وأخطأ.

كان قراره الأول، تطهير الوزارة وجامعاتها من أتباع النظام السابق، كان هدفه صرف الدكتور نوري. أضمر أن علاقة نوري السابقة بالنظام البائد ستساعده في ذلك. وحتى يقطع عليه فرصة الطعن أو الاعتراض، سرّب أخباراً حول نيته تنظيف الجامعات من أتباع الطاغية، والفاسدين. «حجة لن يعارضني فيها أحد.».

سرّب للإعلام فضيحة اختلاسه أموال مشروع كلية الطب، واستعان برئيس قسم الحسابات في الجامعة. هاتفه في مكتبه، كانت سعادة المحاسب غامرةً عندما ميّز صوت الوزير الدكتور: «تكلمني أنا شخصياً يا صاحب المعالي. مبروك المنصب يا صاحب المعالي؟!». أمره أن يزوره في مكتبه في الوزارة، جاءه الرجل مسرعًا وغير مصدق.

أكد الوزير أن عليه أن يعرض ما بحوزته من أدلة ضد الدكتور نوري، على لجنة تحقيق، ووجّه بتسريب الوثائق للصحافة. سعد المحاسب كثيراً بطلبه. قال إنه يتشرف بالعمل تحت إمرته ضد الفساد.

ترك الوزير قرار فصل نوري يأتيه على طبق من ذهب، بعد أن اندلعت مظاهرات طلابية في حرم الجامعة، تطالب بإقالته. ولم يستطع،

طبعاً، أن يرفض مطالب الطلبة!

ضرب عصفورين بحجر. تخلص من رئيس الجامعة، وقام بفلترة سريعة لمؤسسات الدولة التعليمية من الفاسدين.

شجّعه الانتصار، وأعلن قرارًا جريئًا بفصل عدد آخر من الأكاديميين، ممن رأى فيهم عدم الولاء للحكومة الجديدة. حاول فصل عدد كاف كي يتسنى له تعيين من يثق بهم، أو «ممن يرى فيهم الولاء للحزب.»، لكن المفصولين عرفوا كيف يؤلّبوا اتحاد الطلبة ضده، وخمّن أن ذلك كله جاء بتحريض من الدكتور نوري.

فتح أبواب الجحيم في وجهه. اتصل به مرجي باشا معنِّفًا. «نحن نقول يا هادي. وأنت تفتعل المشاكل من أولها.»، وأجبره على إرجاع المطرودين إلى مواقع عملهم. لكنه صمّم على صرف نوري، فوافق الباشا ممتعضًا.

كانت خطوته الثانية، تعيين حاشية تكن احتراماً كبيراً له وللحزب، وتقدر مكانته باعتباره من الصفوة.

أرقته مسألة قائمة الأكاديميين المشاكسين. وظّف دفعة جديدة من أبناء العائلات المحترمة، والمتنفذين؛ كي يضمن لمنصبه طبقة حماية من المجتمع المخملي. وجّه بحركة تنقلات بين أساتذة الجامعات، وإنهاء خدمات تدريجية لآخرين، وإحالات مبكرة لمجموعة أخرى على التقاعد. فتخلص من القائمة ليشرع في ملء فراغها.

فعل كل ما يلزم، حتى يتمكن من إدارة الوزارة بالشكل الصحيح، كي يخدم الحزب على أكمل وجه، ولا يتهمه أحد بالتقصير.

أقام العديد من البازارات في حرم الجامعة الأم. افتتح بعضها مرجي باشا نفسه! وأمر بإقامة المعارض الفنية وحدد مدارسها، واختار لوحاتها شخصيًا. ووجه بإقامة الحفلات الفنية لمطربين مشهورين، وفرق موسيقية من الخارج.

حين قاربت جلسة التحقيق في مكتب النائب العام على نهايتها، خلع الوزير جاكيته من شدة الحر. أرخى ربطة عنقه، وفك أزرار قميصه، وهو يتذكر سلسلة الأحداث المتسارعة التي تهدد ما كسبه في أيامه الأخيرة في المنصب، تنهد مخنوقاً، وواصل كلماته تغالبه العبرات:

«الجميع قال إني جعلت الجامعات واجهات ثقافية للبلد، ولم أترك عاصمة أوروبية إلا وزرتها بحثاً عن فكرة أضيفها إلى صروحنا التعليمية، لم أكن أقيم في منزلي أسبوعاً متواصلاً، من بلد إلى آخر، ومن عاصمة أوروبية إلى أخرى، كم هدية جلبتها لك يا باشا من فرنسا والبرازيل والصين.

استمر كل شيء بصورة سلسة ورائعة. وحضرتكما تعرفان بقية القصة. إلى أن شنّت الصحافة حملة شرسة ضدي. وانقلب الكتّاب علي، واتهموني بأني منتفع ووصولي، وسياستي التعليمية فاشلة. وأني وظّفت معارفي في مناصب عليا. وبعد أشهر، تكالب الجميع عليّ بتهمة ماذا؟! «انتحال شخصية رجل بارز!».

كل ذلك تمّ، بمعرفة وتدبير من قيادات سابقة في المخابرات.

هي من حرّكت القضية نكاية في نجاحاتي، وافتعالاً لثورة مضادة. قدّموا وثائق جديدة، تزعم تصفية المستنسخ، ودفنه في باحة مكب النفايات، وبقدر فرحتي بموته، إلا أنهم عرفوا كيف يستخدمون ذلك ضدي.

لم يعثروا على رفاته فكيف يكون هذا اتهاماً مثبتاً؟

على العموم، أنا لم أستسلم بسهولة. ألقيت بكل ثقلي، زرت جميع من أعرفهم من مسؤولين ومتنفذين. كنت عصيّاً على الكسر. حتى كشفتها لي عن تلك الأوراق، ونتائج التحقيق التي تقول إنه هو من حاول اغتيال الرئيس، وأن رجال الأمن قاموا بإعدامه بدم بارد، وعرضتم اسطوانة مدمجة لعملية التصفية التي صورها الجهاز كإثبات قدمته القيادات للرئيس المخلوع. قلتم الكثير عني، واتهمتموني بالباطل، وأني مخادع استغل الشبه الكبير مع رجل السردين.

كيف تورطت إذن في هذه القضية، وكيف جرى اعتقالي على يد النظام البائد، وكيف أحمل البصمات نفسها؟!

صحيح كما اعترفت لكما سابقًا. لفقت له التهمة، لكنه هو من سرق مني حياتي، وانتحل شخصيتي، وليس العكس. ناكروا الجميل، ما أكثرهم. كم أسديت لهم من خدمات. لم يقف بجانبي أحد. تركوني أغرق وحدي. أنت يا باشا وحدك وعدتني خيراً. قلتَ لي غمّة، وتزول. كيف ذلك. وأنا اليوم وزير، ولدي حصانة، وأخضع لهذا التحقيق المهين؟!

فعلت كل ما أشرت إليه، ونفذت أوامرك. كلمة. كلمة. والآن أنا المتهم. صدقني لن أكون كبش الفداء! لا يمكنهم إرسالي إلى السجن للمرة الثالثة. كل ما فعلته كان من أجل الحزب، كنت مخلصاً دائما للحزب!

هنالك مؤامرة تحاك ضدي، وإلا كيف تكون مكافأتي على إنجازاتي باتهامات زائفة ونكران لكل ما فعلته من أجل البلد؟!».

***

أقل الخسائر

انتهت جلسة التحقيق. تنهدّ الموظف الجالس على طرف الطاولة، ووضع القلم جانباً، وقبض أصابعه وأفلتها، عدة مرات. نظر إلى النائب العام والباشا. رمش بعينيه ينتظر إشارة للخطوة التالية. غمزه النائب العام، فخرج بهدوء، مفسحًا المجال أمام الثلاثة لاستكمال حديث أكثر جدية وسرِّية!

كانت جلسة الاستجواب الثالثة والحاسمة لوزير التعليم العالي، بعد أن سرّب جهاز المخابرات معلومات قديمة عن تصفية حدثت قبل سنوات للدكتور الذي يجلس في حضرة النائب العام والوجيه مرجي باشا، وأن الرجل الذي يشغل منصب الوزير الآن، مجرد محتال. رجلٌ يشبهه لا أكثر. استغلّ وجهه للحصول على مكاسب سياسية بتواطؤ من بعض البارزين في السلطة.

تخوّف مرجي باشا من أن تكون القضية برمتها ملفقة لاستهدافه هو شخصياً. وأن مشكلة الوزير ليست سوى ورقة دسها خصومه للإطاحة بحكومته، ومجلس النواب. والأهم شعبية الحزب.

سحب النائب العام الذي تربطه علاقة وثيقة مع الوجيه مرجي باشا، بكرج القهوة المحروق أسفلها، وسكب ما تبقى من ثمالتها في

فنجان مذهّب. ارتشفها. وأعاد الفنجان مكانه.

أطرق قليلاً، قبل أن يعود إلى الوزير. تفحصه جيداً، نظر إلى تقاطيعه الباردة، تعبّر عن فراغ فسيح، وقال: »تعرف جيداً أن كل كلمة قلتها هي هرطقة لن تفيدك في التحقيق بشيء. وإن لم تدخلك السجن، تأكد أنها سوف تلقي بك في مصحة للأمراض العقلية. لا يمكنك أن تقنع القضاة بأن رجلاً جاء من العدم، يشبهك ويحمل بصماتك وجيناتك، ليستولي على اسمك، ويحاول القضاء عليك. بالله، هذه قصة تقولها لطفل صغير كي ينام، وليس في تحقيق رسمي في تهمة بهذا الحجم!".

تحشرج صوت مرجي باشا، وهو يقول: "كارثة ستجعل من بطل ثوري سوّقناه لحملتنا الانتخابية، لعنة تلاحقنا أبد الدهر."، سعل ثم أغلق فمه بمنديل ورقي، وتابع: "لأننا حينها سنكون مجبرين على إدخالك مستشفى المجانين، والأيقونة التي صنعناها لأنفسنا، ورمزيتك الزائفة، وبطولاتك المصطنعة، ستصبح نكتة يرويها خصومنا بكثير من الفرح".

طقطق الباشا أصابعه بعصبية، واسترسل، غاضباً: أتمنى أن تسقط في قعر جهنّم، لا تساوي قرشاً واحدًا عندي. لكني لا أستطيع تركك في منتصف الطريق. أنا مجبر على دعمك حتى لا يكون سقوطك مدوّياً، وتسحبنا معك إلى الهاوية!

أنهى كلامه، مسترقاً نظرة منكسرة إلى النائب العام.

ردّ الوزير بخوف، وكأنه اكتشف لأول مرة فداحة ما فعل: "كان دفاعاً عن النفس!". رفع النائب العام كفه، بهدوء: "لا تتكلم بمثل

هذه السخافات لأحد، مفهوم؟!"، تدخل مرجي باشا ثانية: "اخرس. أي دفاع عن النفس هذا. جئت اليوم لأدفن فضيحة انتحالك لشخصية رجل متنفذ، فأكتشف أنك قاتل وضيع وشخص تافه وجاهل.".

نظر الوزير للرجلين بحيرة: "ماذا يعني ذلك؟ أتتركانني أغرق وحدي! تأكدا أني لا أملك شيئا. وبالنسبة للسجن، دخلته أكثر من مرة. لا أبالي. طلبتما الحقيقة، وقلتها لكما لأني أثق بكما. أفشيت كل ما عندي، لتجدا لي مخرجًا، لا لأن تعنّفاني هكذا وتهيناني، وتهدداني بمستشفى المجانين. أنا أعقل واحد في هذه الدنيا!".

استشاط الوجيه الباشا غضبًا. «أنت لا تستحق تعاطفنا. لولا أننا نقف على أعتاب الانتخابات الرئاسية، وأنت محسوب على الحزب. وفضيحتك سوف تطالنا لا محالة، والله. والله، لما حاولت مساعدتك، أنا من جلبت هذه المصيبة على نفسي.».

أغمض النائب العام عينيه، وعض على شفته السفلى. وطلب من الباشا أن يهدأ قليلاً. «كل شيء له حل!».

أسقط الوزير رأسه للأسفل: «الموضوع كله مكيدة. أنا وزير، ولا يمكن للبرلمان أن يحرمني منصبي عنوة، أو يُسقط عني الحصانة بسبب وشاية مشكوك فيها من أزلام النظام السابق.».

مال مرجي باشا برأسه على النائب العام، ورفع كتفه، مدارياً نصف وجهه. قال بحذر شديد: «جاءتني توصية من سفارة أجنبية بشأنه» قطّب النائب العام حاجبيه مستغرباً. وردّ هامساً: «من أجل هذا الأخرق؟!»، نعم. هذا الأخرق! تابع الوجيه مرجي باشا قريبًا

من أذن النائب العام: «يبدو أنه أقنعها بأن إخراجه من منصبه عنوة قد يخلق فضيحة، تجهض التجربة الديمقراطية في مهدها، وأن هذا ليس في صالحها كدولة راعية للديمقراطية في المنطقة. وأخبرتني مصادر أثق بها جيدا، أنه قام بزيارة هذه السفارة عدة مرات طوال الفترة الماضية. في الحقيقة، لم يترك سفارة تتربص بنا إلا وتواصل معها!».

أجمع الرجلان على أن الوزير غير متزن، والحل في إيوائه مكانًا هادئًا، يقضي فيه آخر عمره، ربما ليس مصحَّة للأمراض العقلية. لكن شيئاً يشبه إقامة جبرية مخففة وغير معلنة، لا أكثر.

سأل النائب العام بحيرة. «كما اتفقنا؟!» أومأ الباشا له بعينيه «نعم».

أنهى النائب العام جلسة الاستماع. وأكد للوزير الدكتور أن لا مناص له من الاستقالة، وأن عليه قبول ما هو محتوم، لتفادي ما هو كارثي: السجن أو الفضيحة. قال أيضًا: هنالك من يتربص به وبالحزب، وإن الباشا لن يقسو عليه، وسوف يؤمّن له مخرجًا مرضيًا من فوضى عارمة، صنعها هو لنفسه.

صمت الباشا، ولم يعلق. كتم غيظه بصعوبة. تابع النائب العام: «شريطة ألا تتحدث للإعلام بشيء مما ذكرته؛ سوف تورطنا، وتضع نفسك في موقف محرج، وإن حاولت أن تكحلها بأقوالك هذه، صدقني، سوف تعميها. عموماً، أقوالك وديعة لدينا كي نتأكد أنك تحسن التصرف، ولن تخرج للعلن إلا إن تجاوزت الخطوط الحمراء.».

خرج الوزير، محاولاً أن يلملم جسده في بدلة إيف سان لوران. سار متحاشياً جدارًا بشريًا، احتشد في الممر المرصوف بسجادة حمراء طويلة.

قطّب أزرار جاكيته، مصطنعًا جَلَدًا خار تحت وطأة الفضيحة. لم ينظر في وجه أحد. حدّق في نقطة ثابتة في البعيد. ومشى بخطوات مستقيمة يلاحقها إلى خارج مبنى النيابة العامة.

أدرك أنه على موعد مع نهايته المحتومة. شيء آخر يختلف عن كل تلك المصائب، التي ألمت به، خسارة لكل شيء بعد أن استعاد مجدًا حَلِمَ كثيراً بالوصول إليه، لكنه ظلّ يواسي نفسه بالتسوية المرضية.

جهد الوجيه مرجي الباشا في إقناع بعض معارفه المهمين، بأنه ما من داع إلى المزيد من الفضائح في مستهل عمل الحكومة الانتقالية، وأنّ هذا ليس في مصلحة البلد برمتها. عقد صفقات مع الأحزاب الأخرى، تنازل لبعضها عن دوائر انتخابية، شريطة ألا يثيروا الموضوع، و«يكفي إلى هنا!». وافق على تعيين وزير مؤقت لحقيبة التعليم العالي من حزب منافس حتى نهاية فترة الحكومة.

قبل الجميع إنهاء عضوية الوزير في البرلمان، بهدوء شديد، مع التوصية بإصدار بيان مشترك ومختصر مع القوى السياسية الأخرى يعلن استقالة الوزير بناء على طلبه.

وحصل على وعدٍ بتأمين تقاعد الوزير، وصرف معاش شهري له، وعدم مصادرة مقر إقامته الحالي. قال لهم إن القضية ليست واضحة، والأدلة ضعيفة، وثمة الكثير من الارتباك والظلم والتجني.

حثّ مرجي باشا رجال أعمال على صرف معاش الخادم والسائق. أقنعهم بأنه يريد الحفاظ على سمعة رجالات الحزب الذين يحمي مصالحهم، وأنهم كأحجار الدمينو، إن سقط واحد توالت البقية. وأنه

لا يريد المهانة لرجل، لم يبق منبر إعلامي في البلد، إلا وقدّمه شعاراً للحزب.

أيام من القلق المضني مرت على الدكتور؛ معالي الوزير السابق، ظل حبيسا في منزله، ينتظر مكالمة هاتفية وعدوه بها، إلى أن سمع رنين التلفون، رفع السماعة. كان صوت أحد مساعدي الباشا. أخبره بنتائج الجهود المضنية التي بذلها الوجيه مرجي طوال الأسبوعين الماضيين. وأمره بصوت حازم أن يقلل من الخروج إلى الأماكن العامة، وأوجز ما تبقى له من امتيازات حفاظًا على كرامة الحزب، لا أكثر.

ردّ الدكتور، مستسلما: يعني لو تبقون الخادمة أفضل. وماذا عن السيارة هل سأحتفظ بها أيضاً؟! أكد الرجل له ذلك. أعاد الدكتور سرد التفاصيل التي سمعها منه للتو؛ ليتأكد أنه فهم ما قاله الباشا على لسان هذا الرجل: سوف تصرفون لي راتباً تقاعدياً مجزياً، وتبقون الفيلا، وراتب السائق وخادمة، وسيارة الموكب؟ أهذا ما قلته يا سيدي؟

- نعم.

- شكراً لكم يا سيدي. شكراً. أطال الله في عمركم وعمر مرجي باشا. وجعله ذخرًا للحزب والوطن!

- هذا ليس لسواد عينيك. فلا نستطيع أن نلقي بك في الشارع. ستبدأ الأسئلة، وما بنيناه لك سينهار علينا. لا تفكر بأن تتصل بالباشا، ولا أن تقول كلمة واحدة للصحافة. حاول أن تبقى في المنزل!

- شكراً يا سيدي. شكراً. شكراً. سلامي للباشا!

أطبق الجميع أفواههم عن فضيحة تقمُّص هوية رجل مهم في العهد

السابق، لكن ظلت قصته مشوّقة وباهظة الثمن، لا يتداولها العامة، بل يتناقلها أصحاب النفوذ بسرية تامة في حفلات الاستقبال، وأمسياتهم الفخمة.

لاحقاً. انشغل المجتمع المخملي بواقعة أخرى لأحد السياسيين مع فنانة معروفة، وتوارى أثر قصة الوزير السابق في أرشيف الإعلام.

***

كان من الصعب أن يخمن ما جرى لاحقاً. فهو ليس منجماً. ولا يقرأ الفنجان!

في ذلك النهار، كل شيء كان رائعًا. طعام الفطور، الطقس، السماء، أخبار الصباح، الشوارع. لا شيء يدعوه إلى القلق. ظنّ أن كل ذلك الترتيب الغيبي، جرى عن عمد ليناسب ساعات الضحى.

والبستان كما هو دائمًا الأجمل من كل شيء، والكائن الحي الكبير المتبقي، والذي سيظل هناك، أسفل الفيلّا، متألقاً، تكسوه الأزهار، ويغطيه العشب، وتخترقه جذوع الأشجار بتؤدة شديدة، قد لا يراها بعيونه المجردة، تماماً مثل سنوات عمره التي مرت في غفلة عنه بكل ذلك الاكتظاظ والجلبة.

والديمقراطية ليست كما كان يقال عنها. إنها مفيدة للدولة. مهما كانت نتائجها!

استيقظ باكرًا.

أزاح الغطاء الحريري المطرز بخيوط ذهبية عن جسده، وأسقط

ساقه على السجادة العجمية الصغيرة المحاذية لسرير الأبنوس، المحفور بأيدي سمراء في ورشة إفريقية بعيدة. كان متراخياً، يبحث عن أرض يابسة يسند إليها قدميه، لتبدد صلابتها بعض كسله.

تحسس وجه السجادة، بباطن أصابعه. دغدغه زغبها الواقف. احتضن وسادة رخوة، وانحنى منقبضًا أمام كل ذلك الانسجام، مشرئبًا ينظر من الشرفة المشرّعة على الحديقة الممتدة أمامه. مسرح الحياة السعيدة التي حطّ إليها من السماء. بعد أن كادت تسحقه الأرض.

وتخيل، عندما حلّق سربٌ من العصافير، دفعة واحدة، بين أغصان شجرة البلوط الوحيدة وسط حشد أشجار الدردار والزيزفون، أن الصورة الزلقة للأشياء قد بلغت أوجها مع انتفاضة الطبيعة، ورفرفة تلك الأجنحة الصغيرة كلها، في آنٍ معًا. تحديدًا عندما تذكر أنه كان في يوم من الأيام وزيرًا، ورمزًا للثورة، التي لا تزال تنبض على صفحات الجرائد. ونسي، أو تناسى كل ما حدث.

حثه الضجيج المرح لفرقة الطيور المغردة على النهوض من مكانه، وتمطيط كامل جسده في مواجهة النسيم العليل. وقف في مقدمة الشرفة ليتمكن من الاستيلاء على المشهد برمته.

استباح اللحظة من الدائرة الخضراء المرصعّة ببتلات حمراء وصفراء، في طوق بيته الفاخر والجميل، والمتبقي من تلك الذكريات البهيّة.

وضع كوعه على الدرابزين المزخرف بأوراق معدنية، والمصبوغ

بلونه الفضي الفاخر. دلّى كتفه، وراح يمارس هوايته اليومية في مراقبة السائق يقف متمايلاً فوق سلم خشبي، يمسك بمقص ضخم يقلم جنون أغصان أشجار العلّيق تعتلي سوره الحجري. تذكّر حينما كانت هذه النباتات البغيضة تحول بينه وبين هذا الحلم الجميل، والآن يحبها أكثر من أي وقت مضى؛ لأنها تحجب عالماً متناقضاً لا يقوى على فهمه.

سأل نفسه: هل هنالك أعظم من هذا؟!

أحس أنه ارتقى غيمة، تتمايل فوق موجة بحر، وتأخذها ريح مدجّنة إلى حيث تحط الأشياء في مساراتها الثابتة في الفضاء، بعيدًا عن الجاذبية.

فكّر ألا يذهب إلى المقهى للقاء بعض المتقاعدين كعادته، لسرْد قصصه وأسرار الوزارة، وأن يقضي الظهيرة يلملم زهوه من التفاصيل الصغيرة في منزله العامر، ويستمتع قدر ما يستطيع بغرفه الكثيرة، وحديقته الوارفة. ويلتزم بيته كما أمره الباشا، لكنه سرعان ما استخف بالفكرة؛ فلديه ما يكفيه في المقهى الراقي من احترامات النادل والمرتادين ليشحذ نشوته اليومية.

فتح الباب الكبير لدولاب الملابس أمام عشرات الأطقم الفاخرة، اختار حلة "أرماني" تناسب مزاجه الرائق. وتناول ربطة "ديور" حمراء، ودسّ قدمه في حذاء الـ "بيرلوتي" المضيء.

أقفل أزرار الجاكيت على كامل أناقته، وانتصب على أصابع قدميه، قبل أن يهبط ببطء على كعبيه، تاركًا المجال لصورة كاملة في

المرآة لما هو عليه الآن؛ أنيقًا وبهيًا وأفضل من أي وقت مضى!

"ربما حرمني المستنسخ من المنصب، لكنه أمنّ لي تقاعدًا فاخرًا لم يخطر لي على بال، ولقب وزير سابق، وصيتًا واسعًا، وتاريخًا ناصعًا."

نزل السلم اللولبي في فيلته؛ خطوة خطوة، دكّ الدرجات ليثبت ملكيته لهذا الهيلمان، ولتسمع الخادمة التي تبقت من طاقم الخدم، وقع قدميه، فيرى في تأهبها هيبته. لمحته، فوقفت منتصبة في استقامة قاست من أجل اتقانها رغم كبر سنها، وتصلّب عظامها، فزاده ذلك وهجاً.

تصنّع اللامبالاة. كم هو غريب أن يحسّ بهذا الشعور العذب. تجاهلها، مفعماً بمذاق العطر الفرنسي الذي رشّه منذ قليل. وتمهّل قبل أن يصل إلى الباب ليترك لها مجالاً لتفتحه له. واحتفل في داخله، بمنظر السائق يجفل، ويلقي بسيجارته بعيدًا، منتفضًا نحو سيارة المرسيدس السوداء، وينحني مقطباً سترته الرخيصة، ويفتح الباب بيد، ويحمل جريدة معاليه بالأخرى، مطمئنًا إلى أن الوزير السابق قد أدخل جسده أخيرًا، كاملاً غير ناقص، فيطبق الباب المعدني بهدوء، مرددًا التحية الصباحية عدة مرات، وعلى استحياء.

أحبّ التفاصيل الصغيرة. عندما عمل في الوزارة. سيارات الموكب، تقله وتعيده، في خط سير ثابت، تسبقه سيارة الشرطة تلّوح ببوقها معلنة مجيئه فيرى في عيون المارة تساؤلاً يشي بإعجاب بمن هو خلف الزجاج المعتم. كم رغب، أكثر من مرة، أن يفتح النافذة، ويعلن لهم عن حاله: أنا الوزير يا جماعة. أنا من يقام له هذا الكرنفال،

تأملوا وجهي، وأناقتي، وعظمة شأني!

طقوس يومية منحته طاقة للحياة، مكالمات لا تنتهي، وجدول مليء بالمواعيد. مقابلاتٌ، وتفخيم وتبجيل. جيش من الموظفين، وطوابق مبنى الوزارة يجوبها ساعة يحلو له ذلك. ويفرض بجولاته المفاجئة، انضباطا أحبّه في موظفيه الكثر، المستشارون، كتبة الديوان، الإداريون، السكرتيرات، المحاسبون، حتى السعاة، وعمال النظافة، كان يبدي تجاهله، ويسترق النظر إليهم مزهوّاً بحركاتهم البلهاء، حين يهرعون مبتعدين عن طريقه، أو يقفون متأهبين لمجيئه.

فترة المنصب قصيرة. خالجه شعور بأنه لم يكن لينال هذا الشرف لولا ما فعله رجل السردين، والمكانة التي وصل إليها ذلك الرجل البغيض. سجادة حمراء، وسائق، وحراسة، ومدير مكتب، كانت هذه فرصة عمره، منحها له شبيهه، وسلبها منه؟!

فتحت البوابة ساعديها الكبيرين، وانطلقت متسقة مع منحنيات منضبطة يعرفها جيداً، حين كان دكتوراً وأكاديمياً، يبيع الفول في هذه الناحية. اتجهت السيارة نحو الركن الفاخر حيث كدّست العاصمة أرقى مقاهيها.

لم يفصح الشارع عن ريبة. تدافعت سيارات العامة بجانب سيارته السوداء، لتأخذ من مسارها نصيبًا في المرور وسط الزحام، وما تلبث أن تفر بعيدًا حين تنقضّ عليها سيارات أخرى، كل شيء يدعو إلى الطمأنينة. سلاسة الحركة، الأخبار في الراديو، المارة في الشوارع.

ظلت السيارة تنزلق من منحنى إلى آخر بانسيابية. إلى أن باغتتها

زحمة الطريق السريع تمتد إلى محطة الوقود. هناك احتشدت السيارات أمام فتحتها الضيقة. تقدمت مركبة شرطة المرور إلى الأمام لتفتح هوة في الزحام، لكنها ضاعت في طوفان القافلة الحديدية المتراصة.

أمر الدكتور سائقه أن يختار شارعًا التفافيًا؛ لتوفير الوقت. تذرع الرجل بأن الشرطة تجبر الجميع على دخول هذا الخط الضيق، ولا يستطيع أن يخالفها.ساءه أنه لم يعد وزيرًا يأمر الشرطة كي توقف المرور، وتفتح له وحده الشارع، ولتذهب البقية إلى الجحيم.

تحامل على نفسه قليلاً، واصطنع الصبر خلف نظارته السوداء التي أخفت احمرار مقلتيه، وشررًا انطلق منهما.

شقت الحفريات الشارع إلى قطعتين متوازيتين. تركت نصفه الخارجي صغيراً بالكاد يسمح بعبور سيارة واحدة. تكومت العربات في طابور طويل أمام تحويلة محطة الوقود. أطلقت السيارات أبواقها مشحونة بالضيق والضجر، تؤلف معًا عزفًا نشازًا لضوضاء وقت الذروة، وزاد سعار السائقين، بحثاً عن فرجة يفرون بها من هذا الوقوف العبثي.

شعر بشتائمهم تنهشه، وعيونهم تراوده عن فكرة مزاحمة مرسيدس فخمة يركبها متنفِّذ، وأن خدشها قد يقطع عليهم إمكانية التسلل من بين الثغرات.

سحبت سيارته السوداء أشبارها بصعوبة إلى فرجة الخلاص بجانب المحطة. وفي كل متر قطعته، كان السائق يتلفت متعذراً، ومتحججاً بأن الأمر ليس بيده. في المرة الأولى قال له الدكتور

بتواضع: "لا عليك.".

وفي الثانية، صبّ السائق جام غضبه على وزارة البلدية لأنها السبب في هذه الحفريات "اللعينة". أغمض الوزير السابق عينيه مصطنعًا ابتسامة رضا، وأشار له بإصبعه أن ينظر أمامه، ويتابع المسير.

وفي الثالثة، طلب أن يسامحه على التأخير. أشاح الدكتور بصره إلى الجريدة. وأخفى حنقه وراء عناوينها الكبيرة، وغاص في صفحتها ليهرب من عبث النقاش مع "أمّيّ" مثله. تجاهله تماماً.

أدرك السائق أن صبر معاليه بدأ ينفذ. أراد أن يروّح عنه. سأله: "سيدي. هل تريد سماع الراديو؟". وضع الدكتور الصحيفة من يديه. وانحنى بوقار إلى أن صار قريباً من أذنه. صاح فيه: "ركّز وابحث لنا عن طريقة ننتهي بها من هذا القرف." صمت السائق من فوره. ولم يتحدث، إلا عندما اقتربت سيارته من المحطة.

قال بصوت منخفض: "صاحب المعالي سيارة الشرطة هناك في أعلى التلة"؛ أراد أن يدلل على قرب انتهاء أزمة السير الخانقة. وقفت سيارة الدورية بجانب محطة الوقود. وتحررت المرسيدس، أخيرًا، من الزحام. اقتربت أكثر من الأعمدة الخرسانية لمحطة الوقود. هناك تحديدًا لا يتذكر الدكتور ما جرى.

أضاء وهج أحمر لثانية وانطفأ. حلّ ظلام ساخن، وتسرب إلى كل شبر في المكان. لم يعد يرى الصحيفة في يديه. ولا السائق. كأن أحدهم وضع كفه على عينيه، ودسّ أصبعيه في أذنيه؛ كي لا يرى أو

يسمع ما يحدث في الخارج.

ماذا جرى؟! أين الجميع؟! صمتت أصوات المزامير. ولم يتفوه السائق الثرثار بكلمة واحدة، ليوضح له ما يحدث. "عندما أحتاجه لا أجده!" أراد معالي الوزير السابق أن يسأله: لماذا لا أرى شيئاً؟ وما قصة هذا الهدوء؟. لكنه آثر السكوت، كي لا يظن أنه سامحه على سوء اختياره طريقًا سالكًا يوصله إلى المقهى بسرعة.

أقلقه هذا الوضع المخيف. لم تكن لديه حيلة. لا بد أن يستعين بهذا النكرة. اضطر إلى مناداته، لم يجبه. كرر النداء، ولم يستجب. ظلّ ينادي السائق، ويصرخ في الفراغ. ويسأل، زاعقًا، عن سبب العتمة المفاجئة، والسكون الذي لا يتكلم، ولماذا، السائق بالتحديد لا يجيب على تساؤلاته!

كان انفجاراً هائلاً. فلق سيارة المرسيدس قطعتين. قذفهما عشرين متراً بعيداً عن محطة الوقود. وأضرم ناراً هائلة في خزان البنزين الأرضي، ليحدث انفجارًا ثانيًا. صعدت ألسنة اللهب إلى الطوابق العلوية لبناية قريبة، وحطمت زجاج نوافذ الأبنية المحيطة كلها.

تطايرت الجثث واختلطت ببعضها. وتصاعد خط أسود من الدخان، ملأ سماء العاصمة، معلنًا الفاجعة. انتشر الخبر مثل النار التي أشعلته. قضوا نصف النهار يخمدون نيران الوقود المحترق.

مات العديد بسبب قنبلة ناسفة. أجهز الحريق على البقية، وأذابت الحرارة العالية جسد الوزير السابق. فكان معالي الدكتور أول الضحايا. تبخر جسده في درجة عالية، أو ربما ذاب في الاسمنت

والحديد المنصهر، ليتجمد مع الكتلة الصلبة، ويعود جزءًا من خرسانة استقرت على الأرض، وظلت معلمًا للرصيف، ومطباً تهدئ السيارات من سرعتها، قبل أن تعتليه، لتعبر إلى نهاية الشارع.

لم يستطع محققون، برتب عالية، توافدوا بالعشرات، تمييز الأشلاء عن بعضها. مقتنيات كثيرة من مختلف الأنواع تناثرت في المكان. طارت فردة من الـ "بيرولتي" فوق بناية ليست ببعيدة، ظلت هناك. أما الأخرى، فحطت قرب الرصيف قريبة من مكان الحريق.

أمر ضابط كبير، بجمع رفات القتلى. عثروا على فردة واحدة من البيرلوتي، وظلت الأخرى قريبة من ركام الخرداوات، وخزان مياه وخمّ الدجاج فوق سطوح البناية.

قتل الهجوم عشرين شخصًا: الوزير السابق، والسائق، وعامل المحطة، وبعض المشاة، وجرح ثلاثين آخرين. ولم يعثروا على عضو واحد سليم من جسد الدكتور، لينقلوه إلى ثلاجة الموتى. وجدوا بقايا السائق، يدٌ وساق متصلتان بقطعة مهترئة من اللحم المشوي، عرفوها من ساعة اليد المقلدة.

كوّم ضابط، برتبة عالية، أحذية جمعها عناصره، ولم يعثروا على الفردة الأخرى من الـ البيرولتي. وعندما طلب مسؤول أعلى منه رتبة، التأكد من بقايا الوزير السابق، وإرسالها بسرعة؛ كي يتسنى للسلطات استكمال مراسم الدفن، وإنهاء شوشرة لا داعي لها. لم يكن باستطاعته فعل شيء. أرسل لهم فردة البيرولتي مع بعض الأحذية الأخرى، ورسالة اعتذار، كتب فيها: هذا كل ما تبقى!

روت الأخبار فرضيات عديدة. خمّن البعض أن مؤامرة داخلية يقف الحزب الحاكم وراءها للتخلص من أحد رجاله، ويتستر على فضيحة لم يقدر لها أن تكشف، وكادت تودي بحظوظه في الانتخابات القادمة. آخرون قالوا "إن القصة لا تعدو كونها عملية انتقام لجماعة متطرفة، حاولت الثأر من رجل مخابرات سابق، أراد توريطها في محاولة اغتيال وهمية، ابتكرها الرئيس المخلوع ضده؛ ليتخلص منها، لا أكثر". وبعضهم فكّر في جهات خارجية أرادت زعزعة الاستقرار في البلاد، بعد أن قطعت خطوات ثابتة نحو الديمقراطية الجديدة!

لكن البيان الرسمي المقتضب، ألقى باللائمة على الإهمال الحاصل في محطة الوقود، وأكد أن الحادث عرضي، ولم يستهدف أحدًا. ونفى، بشدة، أن تكون عبوة ناسفة تزن مائة كيلو غرام مخبأة في حاوية للقمامة، خلف عمود المحطة الخرساني، قد تسببت بالكارثة.

عقدت الحكومة الانتقالية اجتماعًا طارئًا. أصدرت في ختامه بيان نعي لبطل من أبطال الثورة المجيدة، ومناضلاً عُرف ببسالته ووقفته في وجه النظام البائد.

استغل مرجي باشا الحادث، بطريقة مثالية: قدّم الدكتور مناضلاً خسره الحزب، وأضاف له تاريخه المشرّف في التصدي للديكتاتورية، وكما كان قد استغل فكرة "النذل التائب" ليرفع أسهم الدكتور، روّج جيدًا لفكرة النذل الشهيد، وطوى صفحته، فأقفل ملف الفضيحة نهائيًا، بشرفٍ أضاف شعبية للحزب في الأيام القادمة.

وضعوا الأحذية في التابوت، وانطلقت الجنازة الرسمية من

المستشفى. تلحق بها سيارات حكومية، وجنود. والكثير من البسطاء، يدعون له بالجنة.

في الجنازة المهيبة، استشعر الجميع رائحة نتنة تفوح من بين الازدحام، والأقدام تتدافع تحت النعش.

ترجّل "الجثمان" يحمله مسؤولون من الصف الثاني على أكتافهم. تتقدمهم أكاليل الزهور، وأعضاء من الحكومة والحزب، ومرجي باشا يضع منديلاً ورقياً على أنفه.

سارت الجنازة من جامع كبار الشخصيات إلى مقبرة شهداء الثورة. اختاروا خمسة أمتار مربعة، أحاطوها بسياج مدبب بالحراب السوداء، وأحواض الورود.

أقاموا ضريحًا. أنزلوا فيه الصندوق الخشبي. طمروا التراب فوقه. قرأوا الفاتحة على عَجَلٍ. وأطلقوا واحداً وعشرين طلقة، فارغة، تكريمًا له، ثم غادروا، والرائحة تلازمهم إلى قاعة العزاء.

هناك فوق ربوة يكسوها العشب، وأشجار النخيل اليافعة. نصبوا شاهدًا من رخام أبيض مصقول، كتبوا فوق جبهته اللامعة: الشهيد الدكتور، واسمه.

***